

ومن القيرق الي ألمع إليها شعر الفقهاء المرجئة، وعن بعد فيهم محارب بن
دثار وكان لا يرى خيراً في تأخير خلافة الامام علي إلى المرتبة الرابعة بعد أبي
بكر وعمر وعثمان ويقول في ذلك :

يعيب علي أقوام سيفها لإرجائي أيا حسن عليا
وإرجائي أيا حسن صواب علي الممترين برأ أو شقياً^(١)

وهو لا يريد من تأخيره على هذا النحو نقصاناً من قدره ولا مبدمة،
وكل ما بينه احترام السلف الصالح، وترك الحكم على أنفسهم لأن له الحكم،
والأولى ينال سائر الصحابة بسوء من أجل أن تبين مكانة الامام علي، وهو يستنكر
أن يتخاصم الناس في قوم مضوا وقضوا، ولا يعلم مصيرهم عند بارئهم أحد، بذلك
ينجون م إن عذب الماضون السابقون، ويبرؤون من أن يروم بدوهم إذا كانوا
على هدى وبصيرة :

مضى عمر وصاحبه حميداً هما فازا بحكمها هنيئاً
فلما أكرها حدثت أمور أراني عن تسئها غنيا
وسار الناس بدم صفوقاً يطاعن بعضهم بعضاً ملياً
فإن تابعت هذا قال هذا أسأت وكنت كذاباً مسياً
فإن خفت الإله وصننت ديني

دعيت بهيمة يدهي نصياً
لقيلي لست أدري ما فلان وأن يصير إذ حضروا جنيا؟
إلى الفردوس يخلد أم تراه إذا استمر الجحيم لها صلياً؟
وما كان ابن عفان رسولاً وما إن كان صاحبه نبياً

(١) أخبار الفضاة ١١٩/٣، والاعان (دار الكتب ١١٣٥) ٢٤٨/٧.

ها عبدان إن هلكا بذنب نجوت من الذي ركبها برها
فإن سلما سلمت أقبل عدل ولم أتحبهما قولاً فرياً^(١)

ويعد المتزلة من أبرز الفرق الفكرية التي حرقها المجتمع الاسلامي، ومعلوم
ما تورطوا فيه من امتحان العلماء واضطهادهم في مسألة خلق القرآن، وكان الامام
احمد بن حنبل ممن أصابته شظاياها إصابات جملته يلوم أشده لوم دعاة الفتنة
والمستجيبين لها^(٢).

وعلى نحو ما نبهه صورة المجتمع الاسلامي في شعر الفقهاء من الحوادث التاريخية
والسياسية والفكرية نسقمض طائفة من الشؤون المالية، فنجد اقوم يشطون في
أعمال مختلفة من أجل أن يكسبوا مماشهم، وبما ذكره شعر الفقهاء من تلك الاعمال
التجارة^(٣) وصناعة النسيج^(٤) والأسلحة^(٥) ونقش الدرهم^(٦) والاحتطاب
^(٧) وحفر الآبار^(٨) والنحت بالفاص^(٩) والقضاء^(١٠) والطلب^(١١) والكحالة^(١٢)
والاصطياد^(١٣) والتحميم^(١٤).

وإذا استمر القارئ يميل الطرف في لوحة المجتمع الاسلامي من خلال شعر الفقهاء
يقف على طائفة من الماديات الاجتماعية اليهودم، فمن ذلك أن منازلهم كانت صروحاً^(١٥).

- (١) اخبار الفضاة ٣٠/٣. (٢) انظر آياتاً له في شعر الدعوة الاسلامية في العصر النبوي التاريخي ٣٥.
- (٣) ديوان أبي الأسود ١١١ و ١١٣ و ١٤٦، وانظر شعراً لابن البسارك في
عيون التواريخ حوادث سنة ١٨١. (٤) شعر النعمان ١٧٢.
- (٥) شعر عروة ٢٠١. (٦) شعر عروة ٢٤٥. (٧) ديوان أبي الأسود ١٨٤.
- (٨) انظر آياتاً للامام الشافعي في مناقب الشافعي للرازي ١٩٩.
- (٩) ديوان أبي الأسود ٢٠٥.
- (١٠) انظر شعراً لابن شبرمة في عيون الاخبار ٦١/١.
- (١١) شعر عروة ١٩٠، وانظر آياتاً للشافعي في إتحاف السادة التقيين لمرتضى
الزبيدي ٥٢١/٩. (١٢) انظر إتحاف السادة التقيين ٥٢١/٩.
- (١٣) ديوان أبي الأسود ١١٧، وشعر النعمان ١٦٣، وشعر عروة ١٨٠.
- (١٤) انظر شعراً لأبي حنيفة في الطبقات السنية ١٥٠/١٥٨/١. شعر عروة ٢٢٢.

أو قباً (١) أو خيماً (٢) ، وكان مرفوعاً لدى رجالهم التمام (٣) ، وعند ناسهم لبس الرئيط (٤) والتجلي بالحنجول (٥) ، وشك الطيب (٦) ، وكان من أسلحتهم الحرية السيوف (٧) والرماح (٨) والقيسي (٩) والسهم (١٠) والذراع (١١) والروس (١٢) ، ومن عاداتهم الاحياء (١٣) ، والمراسلة (١٤) ، والتزمية (١٥) ، والرحلة (١٦) ، ومنع الجار (١٧) ، والاستضافة (١٨) ، وإزراع الجفان (١٩) ، وإكرام الخيل (٢٠) ، وبناء الحمامات (٢١) ، ودخولها بالمآزر (٢٢) .

.....

- ١) شمر عروة ٢٥٩ . ٢) شمر النعمان ١٢٣ ، وشمر عروة ١١١
- ٣) شمر النعمان ١٥٠ . ٤) ديوان أبي الأسود ١٢٠ ، والرئيط جميع ربيطة وهي كل ملاءة غير ذات لفتقين ، كلها نسج واحد وقطعة واحدة .
- ٥) شمر النعمان ١٥٢ ، والحجتل : الخلل .
- ٦) شمر عروة ٢٦٩ ، والطباة سير يكون في أسفل القيرية بين الخرزتين .
- ٧) شمر النعمان ١٠٥ و ١١٠ و ١٥٣ . ٨) شمر النعمان ١١٠ و ١٥٤ ، وانظر شمرأ لزبد بن علي في المستطرف ١/٢٢٦ ، وشمر عروة ١٨٩ .
- ٩) ديوان أبي الأسود ١٢٩ ، وديوان الامام الشافعي ١٥ .
- ١٠) ديوان الامام الشافعي ١٥ . ١١) شمر النعمان ١٥٣ ، وانظر أيباناً لناصر بن صالح في تاريخ بغداد ١٢/٢٣٥ . ١٢) ديوان أبي الأسود ١٨٥ ، وشمر عروة ١٦٦ . ١٣) ديوان أبي الأسود ١٩٥ . ١٤) المصدر السابق ١٤٠ و ١٩٩ .
- ١٥) انظر أيباناً لشافعي في تاريخ دمشق (ممهّد) ١٠/٢٠٧ .
- ١٦) شمر النعمان ١٢٣ و ١٣٨ و ١٣٩ ، وديوان أبي الأسود ١١٦ ، و ١١٨ ، وشمر عروة ١٩٢ . ١٧) شمر عروة ٢٥١ . ١٨) شمر عروة ١٨٢ و ٢٠٤ و ٢٥٣ . ١٩) شمر النعمان ١١٠ . ٢٠) انظر شمرأ لابن عباس في حياة الحيوان الكبرى ١/٣٧٩ .
- ٢١) و ٢٢) انظر شمرأ لأبي حنيفة في الطبقات السنية ١/١٥٨ .

ولا نظن أننا لو تكافنا إقحام نظرية الطبقة في أدبنا العربي القديم كنا نخرج بمثل هذه اللوحة التي رسمها شعر الفقهاء ، وما صورته المجتمع الإسلامي في ذلك العهد من جوانب شتى ، عقديّة وعباديّة وخلقية وسياسية وفكرية واقتصادية واجتماعية ، وهي جوانب تشهد للمجتمع الإسلامي القديم بنوع ما شهد به الدكتور طه حسين حين مضى بعمده القرن الثاني للهجرة «عصر شك في كل نوع... وعصر مجون وإباحة ، وتهتك في الحياة المليية وفي القول أيضاً» (١) ، وهو عصر خير من يمثله - في رأيه - أبو نواس ، وعصابة الجان بشار ومطيع والرافعي وحماد عجرد ويحيى بن زياد وابن المقفع وأبان بن عبدالمجيد (٢) ، إذ افتنق الناس بأبي نواس في بغداد ، وفي الشام ومصر حين ذهب إليها ، وإذن فهو «لسانهم الصادق ومرآتهم الصافية» (٣) . . . أما الفقهاء وأماثلهم من المحافظين فقد كانوا يكفون على علومهم ولا يتلقون بلسان أحد ، ولا يجربون عن رأي أحد ، ومع ذلك لم يسلم بعضهم من أشنع تهمة على نحو ما يروي عن يحيى بن أكرم من روايات (٤) .

ويضي الدكتور طه حسين في ترجمته فيقول : «لقد آذ لنا ألا نتخذ أنفسنا بما كان يمدح به ابن خلدون نفسه في أمر الرشيد ، وأمثال الرشيد ، فقد تمدحوا أن الرشيد كان يصلي في كل يوم مائة ركعة ، وأنه أمضى خلافته بين الحج والعمرة ، فظن ابن خلدون أن هذا وحده يكفي لتبرئة الرشيد مما أضيف إليه من أنه كان يلهو وبسكرة . وكذلك ذكروا عن المأمون خلافاً لثقة وخصالاً طاهرة ، ربما سحنت كلها ، ولكنها لم تمنع المأمون من أن يلهو ويشرع الخمر» (٥) . ومع أن ابن خلدون «حرف بين المؤرخين بالتحقيق والنصفة ، والباحث نفسه يشهد له بذلك» (٦) ، فإنه لا يلبث حتى يسمه بالليل والانحياز والتأثر بمجد القدماء ، والاعجاب بالرشيد (٧) ، وينتهي من المصر كما كان قد بدأ بأنه كان «عصر شك ومجون وكان عصر رياء ونفاق» (٨) .

- ١) حديث الاربعاء ٢/٢٩ . ٢) حديث الاربعاء ٢/٨٨ . ٣) ٤) حديث الاربعاء ٢/٤٣
- ٥) حديث الاربعاء ٢/٤٣ - ٤٤ . ٦) حديث الاربعاء ٢/٨٢ .
- ٧) حديث الاربعاء ٢/٨٢ - ٨٣ . ٨) حديث الاربعاء ٢/٤٤ .

ونما يؤسف أن هذه الصورة التي رسمها الدكتور طه حسين لمهد الرشيد والمأمون تختلف اختلافاً تاماً عن الصورة التي رسمها له غوستاف لوبون عندما قال:

«بلغت بغداد ذروة الرخاء في عصر بطل رواية ألف ليلة وليلة هاروت الرشيد الشهير وابنه المأمون، وصارت (بغداد) أمّ مدن الشرق، وذاع صيت الرشيد، وطبق الآفاق، فأرسلت بلاد التتر والمهند والصين رسلاً إلى بلاطه، وأرسل عاهل العرب الحقباني وصاحب الخوّل والشوكة الامبراطور شارلمان الذي كان يملك ما بين المحيط الأطلنطي وجزر الآلب، وهو الذي لم يملك غير آفاس من المصحح، وقد لبى الرشيد أطيب تحياته، وبلغت منه الحماية لحجيج القدير، فأجابه الرشيد إلى سؤاله، وردّه إليه وفدّه مع هدايا عظيمة ومن بينها فيلٌ مجهز بأغر جهاز، والفيل كانت تجمله أوربة تماماً، ولآله وجواهر وحليّ وطاجٍ وعطور وسائج حريرية وساعة دقاقة تدل على الوقت وقد قضى إمبراطور العرب شارلمان المصعب من هذه الساعة هو وحاشيته المتبررون الذين لم يكن بينهم من قدّر على إدراك كُنْهها، والذين حاول شارلمان عبثاً أن يحملهم على إحياء حضارة الرومان»^(١).

ومن الحق أن المجتمع الإسلامي لمهد الباسيين الأوائل لم يكن مجتمع شك ولا مجون، فقد كان الناس - كما رأينا في شعر الفقهاء - يسمون بحلاوة الإيمان ورد اليقين، وكانت مكارم الأخلاق تحفهم بسياج آمن حفيظ، وإذا كان الباحث قد وقف على أمثال أبي نواس ومطبع والرقاشي وحما... من عصبة النجان، فما كان ينبغي له أن يصف المصركلة بالإباحة ولا المجانة، فقد كانت يقابل هؤلاء في مجتمع مثل الصالحين وآلاف الأتقياء، وإذا أردنا التصفية وألقينا على تلك الحقبة نظرة شاملة أدركنا أن المارقين لم يكونوا يتجاوزون معشاره ولا أقل من العشار، وأقرأ في تراجم العلماء والصالحين أعلام الموقعين لابن قيم، وطبقات الفقهاء للشيرازي، وطبقات الفقهاء لطاش كبرى زاده، وطبقات فقهاء اليمن لابن سيرة الجمدي، والطبقات السنية للزبي، والفوائد الهبة للكتوبي، والجواهر المضية لقرني، والديباج الذهب لابن فرحون، وطبقات الشافعية للسبكي، وطبقات الشافعية للأسنوي، وطبقات

(١) حضارة العرب (ترجمة عادل زعير، الطبعة الرابعة) ص ١٧٢.

الحنابلة لابن أبي عمير، وأخبار القضاة لوكيع، وطبقات المفسرين للسيوطي، وغاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري، وطبقات الحفاظ لابن حجر السقلافي، وتذكرة الحفاظ للذهبي، ومشاهير علماء الأمصار لابن حبان، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم، والتاريخ الكبير للبخاري، وميزان الاعتدال للذهبي، وإسان الميزان لابن حجر، وتهذيب الأسماء واللغات للنووي، وتهذيب التهذيب لابن حجر، وطبقات ابن سعد، وصفة الصفوة لابن الجوزي، وحلية الأولياء لأبي نعيم، والطبقات الكبرى للشمراني، وطبقات الصوفية للسلمي، وسير أعلام النبلاء، وتاريخ الإسلام، والمسير في أخبار من غير، للذهبي، وتاريخ دمشق لابن عساکر، وتاريخ بغداد للخطيب، والبدایة والنهاية لابن كثير، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي، والفهرست لابن النديم، وشذرات الذهب لابن المبدأ، ومرآة الجنان للماضي، ووفيات الأعيان لابن خلكان، وفواته لابن شاكر، والوفاء للصفدي، ومؤلفات التراجم الأخرى؛ تقف على عشرات الآلاف من العلماء والفقهاء والقضاة والمفسرين والقراء والمحدثين والبررة الأتقياء، أفترض هؤلاء أن زشع عنهم أبا نواس غالباً عملاً؟

حقاً لقد عرف المجتمع ماجنين وعرف مرابين، ويمكن أن نجتمعهم مما فيؤلفوا تياراً وحدم، ولكن ينبغي ألا يغيب عن الأذهان أن المجتمع الإسلامي كان يضم ثلثي الأرض لذلك العهد أو بكاد، وليس غريباً أن ينشز من ملايين سكانه أفراد موزعون أو عصابات متآمرين، وليس غريباً أن تؤلف من هؤلاء الناشزين لفيماً على منسلك واحد، أو رأي واحد، لكننا سوف نخطئ خطأً سيئاً إذا شغلنا أولئك عن المجتمع المريض كله، وما كان في ذلك المجتمع من مواطنين راشدين ورجالاً صالحين.

وكذلك لم يكن أبو نواس يمثل عصره، ولم يكن يمثل أمة، إن يمثل إلا عصبة بأد من المجتمع بالخط والامتنكار، أو لم يرو البساحث أن أبو نواس وجس في عصر الرشيد كما جيس في عصر الأمين^(١)؟ أو لم يكن أبو نواس،

(١) حديث الأرياء ١٣/٢، وانظر قصة حبسه لجورته في أخبار ابن نواس لأبي حنيفة بنسفيق عبدالستار فراج (مكتبة مصر) ص ١٦.

وعصابة الخيَّان، يتحرَّون لوَيْلهم الليل^(١)، فيُدخلون، وهم يترقبون^(٢)، إلى
 مَسْكِرَة نائية^(٣)، حتى إذا بَلتوها دُهر الخَمَّار^(٤)، لظنه إيام نمرطة حكومية؛
 أو يقصدون بستاناً بعيداً^(٥) أو بعض الأودية في الضواحي^(٦)؛
 وإذا كان أبو فؤاد قد وجد له في بغداد أمياً يجيباً على منواله، أو كان لا
 يقدم آخرين يرجون به في الشام ومصر؛ فهل معنى هذا أن الفقهاء وجماعة
 المحافظين كانوا في لزواء عن الناس وعكوف على علومهم لا يفتنون سواها؟ شهيد
 التاريخ أن هؤلاء العلماء كانوا يجنبون في أفولهم وأعمالهم في وضع النهار، بينما
 كان الماجنون يستخفون، وكان يجتمع إلى أمّة الدين حلتى لا يحصون عدداً ولا
 يُستقصى لهم منشأ؛ وتروي الروايات أن مالك بن أنس مر، في أثناء طلبه العلم،
 على ابن حازم وهو يحدث في المدينة، فجازته، ثم سئل عن ذلك فقال: «إني لم
 أجد موضعاً أجلس فيه فكرهت أن آخذ حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم»^(٧).
 ولما بلغ مالك في علمه ما بلغ كان يقول ابن فرحون «كالمعادن له حاجب يأذن
 عليه، فإذا اجتمع الناس بيابه أمر آذنه فدعاهم، فحضر أولاً أصحابه، فإذا فرغ
 من يحضر أدن للامة»^(٨)، وكان النرياء يسألونه عن الحديث والحديثين فيجيبهم
 الفظة بعد الفظة^(٩)، وقد قصده قوم من أقاصي المغرب يسألونه^(١٠)، كما قد قصد
 أحمد بن حنبل «في بغداد» بقى بن متخلد الأندلسي «على قدميه» ليأخذ
 عنه^(١١)؛ ولما توفي صاحب المسند وكانت الصفوف من الميدان (في بغداد) إلى
 قنطرة باب القطيعة، وحُزِر من حضرها من الرجال ثمانمائة ألف...^(١٢) وكان
 في المجتمع من أمثال ابن حازم ومالك وابن حنبل علماء كثير كثير.

(١) (٢) و (٣) انظر ديوانه ٢١٣ . (٤) انظر ديوانه ٢٠٠ و ٢٠١ و ٢٢٤
 ولا بأس أن نذكر قوله :
 إلى بيت خمار ودون محله قصور منيفات لنا ودروب
 ففترع من إدلاجنا بعد حمة وإيس سوى ذي الكبرياء رقيب
 ديوانه من ٢١٣ . (٥) انظر ديوانه ٢٢٢ و ٢٣٠ . (٦) انظر ديوانه ٢٣١ .
 (٧) حلية الأولياء ٢١٨/٦ . (٨) و (٩) و (١٠) الديباج الذهب ٢٣ .
 (١١) النهج الأحد للمليبي (مطبعة المدني) ١٧٧/١ . (١٢) صفة الصفوة ٢٠١/٢ .

أما الذي يروى عن يحيى بن أكرم فقد مر بنا عند الحديث عن الغزل أنما
 هو بهتان قذفه به خصومه ليعزلوه عن «وظيفته الحساسة» في الدولة، وأقد برأ
 يحيى من بهتانهم اثنان من كبار الائمة الثقات لذلك المصراهما أحمد بن المدائني وأحمد
 ابن حنبل، وكفاه شهادتهما، ولشبهة أنه لم يحظ بهرتتهما؛ قبل يصح أن يرمي
 بوزره أحداً من الفقهاء سواء؛ أفندي القواعد على الجمهور أم على الشذوذ؟
 وأما الرشيد والمأمون فإننا لا نخدع أحداً إذا نقلنا إليه ما سجله التاريخ
 من أن ما كاتا يتماطيانه إن هو إلا ضرب من التبيذ، لا الخمر، ومسروق مذهب
 فقهاء العراق فيه^(١). وإذا كان الباحث يأبي إلا أن يصمها بمسارقة أم الخبيات وبهتاما،
 في جملة خلفاء القرن الثاني ووزرائه، بالثناء، وأنهم كانوا يجنبون حبيبات
 مختلفتين: حياة المحافظة للشعب، وحياة الإيتم لأنفسهم^(٢)، فما كان له أن يرمي
 المصير كله بالجماعة، لأن معنى «حياة المحافظة للشعب» أن ثمة سلطاناً قوياً يهيمن على
 المجتمع بسانته وحكومته وخليفته ليس يجرؤ على المجاهرة بخدشه إلا المقامرون،
 وهذا السلطان الهميم هو الذي يمثل المصير لا ننوز الماشرين ولا خلاف العالمين.
 وإن الرواة قد أثبتوا للرشيد والمأمون انصياعها لذلك السلطان وحصرهم على تأييده
 وتأييمه بقوته، فقد حبس الرشيد أبا فؤاد لا يباحته كما رأينا وعزل المأمون قاضي
 دمشق لازلاقه في كلمة باطلة^(٣)، صنع أبيه من قبل.

(١) قال ابن خلدون: «وإنما كان الرشيد يهرب بيذ النمر على مذبح أهل العراق، وقفاويم
 فيها مسروقة، وأما الخمر الصوف فلا سبيل إلى اتهامها، ولا حميد الأخبار الواعية فيها، فلم يكن
 الرجل يجت يواقع محرماً من أكبر الكبائر عند أهل اللثة» (تاريخ ابن خلدون ١٤/١) . وقال
 طيفور للأوزح: «كان المأمون يحضر يحيى ابن أكرم وهو يقرب فلا يتقيه ويقول: لو أراد
 يجير أن يهرب ما تركته، وربما وضعت الصفحة أمام المأمون فيها مطبوخ، وتحمي يأكل منه،
 فيقول له المأمون: فيها مطبوخ، التي لا أترك قاضي يهرب التبيذ» (كتاب بغداد ١٤) . فالصواب
 الذي يصاطه المأمون هو التبيذ المطبوخ، وهو ما يسمى بالطلاء، أي التبيذ الذي يطبخ حتى ذهب
 نثته، وبقي نثته، وهو ما لا يرى بين الفقهاء فيه بأساً. (انظر نهاية الأرب ١٠٦/٤) .
 (٢) حديث الأربعة ١٣/٢ . (٣) روى طيفور عن محمد علي الذي قال: «كنا قدام
 أمير المؤمنين (المأمون) بدمشق غنفي عليه: برئت من الإسلام إن كان ذا الذي أنك به الواشوت عني كما قالوا
 ولكنهم لنا رأوك سرية إلى توأستوا بالنميمة واحتلوا»

إن من سداد الكلم أن يقال في عصر هذا أمره : هو عصر ابتداء الخمر والأيام ، واستخفاف أصحابها وراه الحُجُب أو هروبهم من سلطان المجتمع إلى حيث ينجون منه بإيتمهم بين المقابر والآكام والظلام ، وليس ثمة حاجة أن تهم صاحب المقدمة ، فهو يكره الفرض والهوى كما يقول الدكتور طه حسين (١) ، وهو صريح الرأي ولو أدى به ذلك أن يسلكه بعض المدارس في الدين جحدوا فضل العرب، قوم الرشيد ، وتمسكوا عليهم (٢) .

.....

وعلى هدي شعر الفقهاء وسيبرم نستطيع أن نتصور موقفهم من الفناء وخلافهم لما ذهب إليه الدكتور نجيب البهيتي في قوله : « كان علماء الدين في الحجاز يقبلون على هذه الموسيقى ويحبونها ويقفون دروسهم لساعها ، هذا في الوقت الذي كان المراق يتحرج من الفناء ويشكره » (٣) . ويقول في موضع آخر : « فالحجازيون كانوا يتمسبون للفناء تمسبهم للرأي ، والمراقيون يكرهون الفناء كراهة ترمت وضيق أفق وانحصار تفكير » (٤) .

ومن بعد إلى علماء الحجاز يجد بالفضل أئمة كانوا يحبون الفناء ، ومن هؤلاء إبراهيم بن سمد الذي يحكى أنه كان يضرب بالود (٥) ، وهروة بن أذينة الذي كان يصوغ ألحان الفناء على شعره وينحليها للمفتين (٦) ، وقد رجحت أن تكون جملة ما صاغ فيها في الفترات الأولى من حياته ، قبل أن يتفقه ، على أننا إذا تركنا ذينك الفقيهين وجدنا كثرة علماء الحجاز لا يقبلون هذه الموسيقى ولا يحبونها ولا يقفون

= فقال : يا هلويه لمن هذا الشعر ؟ فقال : لفاضي . فقال : أي فاض ويحك ؟ قال : فاضي دمشق . فقال : يا أبا اسحق اعزله . قال : قد عزلته . قال : فيحضر الساعة . فأحضر شيخ محضوب ... فقال (للمأمون) : هذا الشعر لك ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين ، وناؤه طوائق وكل ما يملك في سبيل الله ان قال هذا الشعر منذ ثلاثين سنة الا في زهد أو معاتبة صديق . فقال يا أبا اسحق اعزله ، فا كنت أولي رقاب المسلمين من يبدأ في عزله بالبراهة من الاسلام . (كتاب بغداد ١٥٢) .
١ (حديث الأربعاء ٨٢/٢ . ٢) انظر تيارات ثقافية بين العرب والفرس للدكتور احمد الحوفي (دار نهضة مصر) ٣٣٢ و ٢٣٨ . ٣ (تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري (القاهرة ١٩٥٠) ص ١٢١ . ٤ (المصدر السابق ١٢٣ . ٥ (نهاية الأرب ١٦٧/٤ . ٦ (المستطرف ١٤٨/٢ .

دروسهم لساعها ، ولا يبيحون من الفناء إلا ما كان يغير آلة (١) ، وقد سئل الامام مالك بن أنس « عما يترخص فيه أهل المدينة من الفناء فقال : إما يفعله الفساق » (٢) وقد نهى عن الفناء وهن استماعه وقال : إذا اشترى (السلم) جارية فوجدتها مننية كان له ردها باليبس . وهو مذهب سائر أهل المدينة إلا إبراهيم بن سمد وحده (٣) .

ومن الحق أنه لا بد أن ينظر الباحث في نوع الفناء الذي كان يقبله علماء الحجاز : أهو بآلة أم دون آلة ؟ وما صنف تلك الآلة ؟ وهل موضوع الفناء طيب حلال أو فاسد حرام ؟ وهل كانوا يستحبون الفناء في مناسبات خاصة ذكروها أو كانوا لا يرون به أي بأس في أي وقت ؟

يقول ابن الجوزي : « الفناء اسم يطلق على أشياء منها غناء الحبيج ... أشعاراً يصفون فيها الكعبة وزحزم ... فصح تلك الأشعار مباح ... فأما الأشعار التي ينشدها المنون التيهون للفناء ، ويصفون فيها المستحسنتات والخمر وغير ذلك مما يحرك الطباع ويخرجها من الاعتدال ... ينبغي للماقل أن ينصح نفسه وإخوانه ويحذر نيليس إبليس في إجراء هذا الفناء بجرى الأقسام المقدمة التي يطلق عليها اسم الفناء ، فلا يحمل الكل مجملًا واحداً ، فيقول : قد أباحه فلان وكرهه فلان » (٤) وقد يؤيد قول ابن الجوزي ما أخرجه عن الزبير بن بكار قال : « حدثني عمي قال : أدركت الناس بالمدينة وهم يفتنون لحناً بندونه إلى عمر بن عبدالمزني : كأن قد شهدت الناس يوم تقسمت خلأيقهم فاخترت منهم أربعا إعارة مع كل متغاب صاحب وتأتي لعيب الناس إلا تبسما وأعجب من هاتين أنك تدعي السلامة من عيب الخلائق أجمعا

١ (العدد ١/١٨٠ . ٢ (٣) نيليس إبليس ٢٢٢ . ٤ (نيليس إبليس ٢١٥ .

وأنتك لو حاولت فعل إساءة وكوفئت إحساناً جحدتها مما^(١)
 وأغلب الظن أن من مال إلى الفناء من علماء الحجاز لم يكن يجاوز مثل
 هذه الأثمار في اللوم النفسي والتهديب الخلقى.
 وإذن كان ينبغي للباحث أن يميز ما أحله سماعه وما حرّمه ، وألا يعمّم
 القول بإباحتها على مالك وأمثال مالك ممن كانوا يرمون المترخصين فيه بالفسق ، ومن
 الغريب أنه ينعت أهل الحجاز بالتمصب للرأي ، والمروء أن أهل العراق هم الذين
 أعلوا من شأنه ، وكان الامام الراقي أبو حنيفة ، أكبر فقهاء الرأي في عصره ،
 يقابل مالكا فقيه الحديث في دار الهجرة في ذلك الحين .

٣ - محاولات لإصلاح الانحراف الاجتماعي :

رأينا عند الحديث عن « الشر والحياة » أن من واجب الشراء أن يرتقوا
 بالمجتمع من حولهم لا أن يرتكسوا به ، ومن يطالع أثمار الفقهاء السائفة في الحكمة
 وغير الحكمة يجدهم يرسلون النصائح تترى لكي يتحلّى الناس بمكارم الانسان الصالح ،
 ويتجنبوا الانتكاس في « خصائص المرء غير الصالح » .
 وكان من إسهامهم في هذا الجانب الإسلامي طائفة من النقد الاجتماعي لبعض
 الحكام والبطالة والانشقاق الديني والانحراف في الزهد والميل في القضاء ، ومما قرأه
 الحمر وجريمة السرقة وأساطير المنجمين .

فإن المبارك ينمى على عوج الحكام أو بعض الحكام وإشراق جيفة الدنيا
 على الآخرة فيقول :

وهل أفسد الدين إلا الملوكُ وأجبارُ سوء ورهبانها
 وباهوا النفوس فلم يربحوا ولم تنقل في البيع أثمانها

(١) سيرة صخر بن عبدالنزير ٢٣٠ . وانظر في الفناء كتيب « حكم الإسلام في الفناء »
 للشيخ محمد الحامد (الطبعة الرابعة ، دار الدعوة بجمه ، ٤ ، وأحياء علوم الدين ٢٦٦/٢ وما بعدها ،
 ونهاية الأرب ١٥٦/٤ وما بعدها .

لقد رنع القوم في جيفة يبين الذي اللب إثنائها^(١)
 ويهود مرة أخرى فيتهمهم برقة الدين والاسراف في الأقبال على الدنيا فيقول:
 أرى أناساً بأذى الدين قد قنعوا ولا أراهم رضوا بالعيش بالدون
 فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدينهم عن الدين^(٢)
 وكان ابن المبارك كان يريد أن يقطع هؤلاء الحكام مقاطعة تامسة ، أو
 يفتنوا « قناعهم بأذى الدين » فوجه رسالته المشهورة إلى ابن عتبة لما ولي حملاً
 حكومياً في البصرة وكان فيها :

يا جاعل العلم له بازياً يصطاد أموال المساكين
 احتلت للدنيا ولذاتها بحيلة تذهب بالدين
 وصرت مجنوناً بها بعدما كنت دواء للمجانين
 أن رواياتك فيما مضى عن ابن عون وابن سيرين
 أن روايتك في سردها في ترك أبواب السلاطين
 إن قلت أكرهت فما كان ذا زل حمار العلم في الطين^(٣)

وبروى أن ابن عتبة بكى لما بلغته الأبيات واستغنى وقال :

أف الدنيا أبت توأيدني إلا بنقضي لها عرى ديني
 عيني لحيني ضمير مقلتها تطلب ما ساءها لترضيني^(٤)

وكأنما كان لابن المبارك حساسية خاصة في هذا الشأن ، وهي حساسية لا

(١) حلية الأولياء ٢٧٩/٨ .

(٢) كتاب الورقة ١٤ ، وبيجة المجالس ٣١٣/٢ ، والسنطوف ٩٠/١ .

(٣) الطبقات الكبرى للشمراقي ٥٩/١ ، ومحاضرات الأدباء ٣٤/١ ، والورقة ١٥ .

(٤) ٥٩/١ ، وطبقات الشافعية للسبكي ١٥٠/١ .

تَبَدَّى في شمره غسب، بل أيضاً في حياته، فقد جاء عبدالله بن أبي العباس الطرسوسي - وكان والياً بمر - إلى منزل عبدالله بن المبارك بالليل، ومعه كاتبه والهواة والقرطاس... فسأله عن حديث فأبى أن يحدثه، ثم سأله عن حديث فأبى أن يحدثه، ثلاث مرار، فقال لكتابه: أطور قرطاسك، ما أرى أبا عبدالرحمن يرانا أهلاً أن يحدثنا، فلما قام يركب مشى معه ابن المبارك إلى باب الدار، فقال له: يا أبا عبدالرحمن، لم لم ترنا أهلاً أن تحدثنا، ونعني معنا؟ فقال: إني أحببت أن أذل لك بدني ولا أذل حديث رسول الله ﷺ، (١)

وليس من شك أن مثل هذه الأفعال من أبي عبدالرحمن تدعو إلى التساؤل عن دواعيها عنده، ولا سيما أنه عاش بين سنتي ١١٨ و ١٨١، وشهد - منذ استوى عوده - أيام أبي جعفر المنصور ثم ابنه محمد المهدي ثم المهدي بن المهدي ثم الرشيد أبي الهادي وابن المهدي، وكلهم تمتع بكثير من عظيم الخصال التي ينبغي أن يتحلى بها الحاكم، وأغلب الظن أن أم ما كان عبدالله بن المبارك يتقمه من هؤلاء توريثهم الخلافة وتوليهم المهدي، وعلى الرغم من أن التاريخ يثبت للمنصور والمهدي والرشيد خاصة، ممن عاصروا ابن المبارك، محامد ومواهب ليس يستبعد معها ألا ينتخب الناس سواهم، لو انتخبوا، فإن استخلافهم بولاية المهدي يخالف مخالفة صريحة لبيعة الإسلام ومنهاجه الذي يحمل الأمر شورى، لا وراثة، بين المسلمين، فيتولى الحكم من هو أكف له وأجدر به، ولو كان عبداً حبشياً كأن رأسه زبيبة. ومن هنا أطلق عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق على هذا الخطأ التاريخي «سنة كسرى وقهر»، (٢) لا سنة رسول الله ﷺ، وقال سعيد بن المسيب لما دعي للبيعة لأوليد وسابغ بن عبد الملك بن مروان: «لا أبيع اثنين ما اختلف الليل والنهار» (٣)، واتقى عبدالله بن المبارك ببطل الرحمة وسيد وكثير من أمثالها فنقم قهقهة المائة. ومع هذا فإن قهقهة لم تكن جداراً صلباً ولا برزخاً حليماً دون رضا عمن تطيب سيرته وتحمده أمهاله من أرباب الأمر، فقد كان يشكر مثل هؤلاء حراسهم الذين آفة وعباد الله فيقول:

(١) حلية الأولياء ١٦٩/٦ . (٢) تاريخ الخلفاء ١٩٦ . (٣) حلية الأولياء ١٧٠/٢

الله يدفع بالسلطان مُضَلَّةً عن ديننا رحمةً منه ورضواناً لولا الأئمة لم تأمن لنا سبيلٌ وكان أضغاثنا نهباً لأقوانا (١)

وعن بدت في أشعارهم هذه التهمة الراجحة عن الملوك والحكام، المفرطين منهم، الإمام الشافعي، فهو ينهى أن يقف المرء على أبوابهم ذليلاً متبجحاً يرتجى به أنس إن غضبوا عليه جاروا عليه، وإن حظي برضاهم لم يلبثوا حتى يثبوه وبساموه (٢)، وأشعار الفقهاء في هذا المضمار وأشعار غير الفقهاء فيه تزد مزاحم الذين يتدفون تلك المصوّر المتقدمة بأنها طبقة بلاط فحسب، وهو بلاط يبسط جبروته على الشعراء فلا يشتغلون بشيء سواه (٣)، ولا يتعدو مثل هذا القول - في الحقيقة - أن يكون رجماً بالقيء، وجهلاً بتاريخ الشعر، ودعوى ليس يؤيدها أي برهان أو «بينة»، بل يدحضها دحضاً ما رأيناه من تصور الشعراء الفقهاء لجوانب متشعبة من أحوال المجتمعات الإسلامية، لا من أحوال البلاط، ومواضعهم المتلاحقة للحاكمين وغير الحاكمين، وحب الناس لهم حباً جماً مرة بنا أمثلة منه في ابن حازم ومالك وابن حنبل، وذكر ابن خلدون منه في أمر عبدالله بن المبارك الذي رأينا من قريب بكيته للتحرفين منهم، فقال: «قدم هارون الرشيد الرقة، فتمنى الناس خلف عبدالله بن المبارك، وتقطعت النمل، وارتفعت النيرة، فأشرفت أم ولد أمير المؤمنين من برج الخشب، فلما رأت الناس قالت: ما هذا؟ قالوا: علم أهل خراسان قدم الرقة يسألون عبدالله بن المبارك، فقالت: هذا والله الملك لا ملك هارون...» (٤)

وكما حمل الفقهاء على بعض التحرفين من رجال الحكم حمل الدولي على البطالة، وقد تقدم نبيه لولده عن كسل التمتي (٥)، وحمل ابن المبارك على الانشقاق المهدي، وقد مررت أبياته التي تحذر المسلمين أن تفرق بهم السبل، جماعة تنتقد من أجل علي سابقه من الخلفاء الراشدين، أو تنال فتزعم أنه لم يمت وإنما

(١) حلية الأولياء ١٦٦/٨، وانظر بيعة المجالس ٣٣٢/١ .
(٢) انظر تبيحة الامكار ١١ . (٣) انظر الادب للشعب ٢٦ و ٦ .
(٤) وفيات الاعيان ٢٣٨/٢ . (٥) انظر تهذيب تاريخ ابن عساكر ١١٥/٧ .

هو في السحاب ، وطائفة جهمية ، وأخرى مبتدعة (١) . ويستنكر أن يعلمن في السالفين أحد فيقول :

شُخِّي بقوم مضوا ، كانوا لنا سلفاً وللرسول مع الفرقان أهوا
فما الدخول عليهم في الذي عملوا بالظمن مني وقد فرطت عصياناً (٢)

ومما نادى به ابن المبارك - سوى الاختلاف بين المسلمين - الانحراف في مفهوم الزهد وأن يظن أنه خشونة في الظاهر أو نحو ذلك فحسب ، وقد مررت بنا أبياته التي كتبها لأبي الساهية بنصحه بالجهاد وملازمة الفجر والتبشؤ فيه ، ويشبه هذه الأبيات رسالته التي أنفذها مع بعض الحجيج إلى الفضيل بن عياض سنة سبع وسبعين ومائة ، وفيها :

يا عابدَ الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك في العبادة تلمب
من كان يخضب خده بدموعه فتجورنا بدمائنا تخضب
أو كان يتب خيله في باطل فخيولنا يوم العكرية تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا رهج السنايك والنبار الأطيب
لقد أتانا من مقال نيتنا قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي وغبار خيل الله في أنف امرئ ودخان نار تلمب
هذا كتاب الله ينطق بلساننا ليس الشهيد بميت ، لا يكذب (٣)

فهو ينكر أن يحول الزهد تبشؤاً جامعياً فحسب ، بل لا بد أن يدرك الزاهد طعم الجهاد فيربط في الثنور ، ويدفع عن ديار الإسلام أعداءه ، ولو أفضى به الأمر أن يشخب دماً وبجابه بأس المارك ، ويشير ابن المبارك إلى الحديث

(١) انظر طبقات الشافعية للسيدي ١٥١/١ ، وتاريخ ابن عساكر (المهد) ج ٦

(٢) تاريخ ابن عساكر (المهد) ج ٦

(٣) طبقات الشافعية للسيدي ١٥٠/١ والنجوم الزاهرة ١٠٣/٢

النبي الذي رواه في كتابه الجهاد وهو : ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في متخري عبد مسلم أبداً (١) ، ويشير أيضاً إلى قوله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون » (٢) .

ومن اشتهر عليهم الإمام الشافعي بعض القضاة الذين يؤذون عرض الدنيا على الدين بدل أن يحكموا بالحق خالصاً (٣) ، وأنكر أبو الأسود على مولى له أن يتعاطى الحجر ، ويأمره أن يستقي عنها بمصير العنب ، فكلاهما من النخيل ، غير أنها - خلاف المصير - لا يشربها إلا الفواة الآثون :

وإن امرأاً قد قال في الحق خبطة لمستمس تصديقها ببيانها
دع الحجر يشربها الفواة فأوني وجدت أهاها مجزياً لمكانها
فأولاً يكتننها أو تكتننها فأوته أخ أرضعته أمه بلبانها (٤)

وعلى هذا النحو يأخذ أبو الأسود على الشربة فتلتم الشفينة (٥) ، ويهزأ بهم ، يقول الحارث بن بدر الغداني لما خرج ليتولى دسرق ورامهرمز اللتين ولا عليها عبيد الله بن زياد وكان حارثة من أهل الثراب :

أحار بن بدر قد وليت ولاية فكئن جرداً فيها تخون وتسرق
ولا تحتقر يا حار شيئاً وجدته فحفظك من مال العراقيين سرق
وباه تيمماً بالنقى إن للنقى لساناً به المره الهيوية ينطق (٦)

ومن باء بسخط الشعراء الفقهاء كذلك المنجمون الذين يفترون على الكواكب

(١) كتاب الجهاد ٤٣ . (٢) سورة آل عمران ١٦٩ .

(٣) ديوانه ١٩ . (٤) ديوانه ١٨٩ ، وأخوها عصب العنب ، وقد قصد نبيذ الزبيب ، وطوبى له إذا طابح أدنى طبخ خلال إذا حارب منه ، دون لهو ولا طرب ، ما يظن على ظنه أنه لا يسكره (انظر الباب ٨٤/٢) وانظر في حرمة الحجر وتعيين شاربها شعراً كذلك لابن شبرمة في العقد الفرید ٣٣٥/٦ ، وبيتين لابن عتبة في ديوان المعاني ٣١١/١ .

(٥) انظر الأغانى (دار الثقافة) ٣١٥/١٢ . (٦) وفيات الأعيان ١٨٩/٢ ، والعقد الفرید ٦٠/٣ . ونسبت في جملة أساب العرب من ١٨٥ إلى أنس بن أبي النقيع .

زوراً، والشاقي يبين أساطيرهم ويدهض شبهاتهم، فليس الأمر ولا القضاء إلا بيد الله القوي العزيز:

خَيْرًا عَنِّي الْمُنْجِمَ أَنِّي كَافِرٌ بِالَّذِي قَضَى الْكَوَاكِبُ
طَلَمُ أَنْ مَا يَكُونُ وَمَا كَانُوا قَضَاءَ مِنَ الْمَيْمَنِ وَاجِبٌ^(١)

فشمز الفقهاء بمرض لنا ظواهر سالحة من المجتمع الاسلامي، وهي ظواهر ترسم له لوحة واسعة مريضة تتبدى فيها جمهرة من بلدانه وتضاريسه وطقوسه وتبساته وحيوانه وسكانه، كما يستنبط منها أطراف من العقيدة الإسلامية وما ينبثق منها من عبادات ومماير للإنسان الصالح وغير الصالح، ويلمح في تلك اللوحة أيضاً حوادث تاريخية وأخرى سياسية وقضايا فكرية وأعمال مالية وطاقات اجتماعية ونصائح نقدية، وكل ذلك يشهد للمجتمع الإسلامي بغير ما شهد له بعض الدارسين الماصرين من أنه كان مجتمعاً طليقاً، أو أن القرن الثاني كان عصر إبادة ومجانة، أو أن علماء الحجاز كانوا يتمسبون للثناء أي غناء، أو أن الأدب العربي القديم كان أدب بلاط لا يمداه.



(١) تليحة الانكار ٤

الفصل الرابع

الالتزام

١ - الالتزام في الإسلام:

يكثُر في نصوص الذكر الحكيم وسنة المصطفى تقرير المسؤولية التي فاطمها الإسلام بالإنسان، وهي مسؤولية تشمل كل ما يقوم به من عمل، قال تعالى: «وقفوم إنهم مسؤولون»^(١). وقال أيضاً: «فلنسان» الذين أرسل إليهم، ولنسان»^(٢) المرسلين»^(٣)، وقال من قائل: «فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون»^(٤)، وقال سبحانه: «ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً»^(٥).

وكذلك تشمل المسؤولية كل كلمة ينطق المرء بها، قال عز وجل: «ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد»^(٦)، وجاء في الحديث الصحيح: «عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يُلقي لها بالاً يرفع الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يُلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم»^(٧)، وقال طاووس ما من شيء يتكلم به ابن آدم إلا أحصي عليه حتى أينته في مرضه»^(٨).

ولم يؤخذ الإسلام بالأعمال والأقوال فحسب، وإنما أخذ أيضاً بأثار تلك الأفعال والأقوال، فقال تعالى: «إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم» وكل شيء أحصيناه في إمام مبين»^(٩)، وقال عمر: «من حدث حديثاً فمعل به فله مثل أجر من عمل ذلك العمل»^(١٠)، وآثر النبي ﷺ الصمت على الكلام

- (١) سورة الصافات ٢٤ . (٢) سورة الأعراف ٦ . (٣) سورة الحجر ٩٢-٩٣ .
(٤) سورة الإسراء ٣٦ . (٥) سورة في ١٨ .
(٦) الفجر يد الصحيح لأحد حديث البليغ الصحيح ١٤٤/٢ . (٧) حلية ١/٤ .
(٨) سورة يس ١٢ . (٩) انبياء علوم الدين ١٨/١ .

الذي لا يجدي خيراً : د من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو
ليصمت^(١) ، وقال في ذلك أيضاً (لماذ) : «كف عليك هذا . قلت يا نبي الله ،
وإننا لو أخذون بما تكلم به لقتلنا أمك^(٢) فقال : تكف أمك وهل يكب^(٣) الناس في النار
على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم^(٤) .»

وقد مضى الإسلام وهو يبين مسؤولية الناس أمام خالقهم فناطق تلك المسؤولية
أيضاً بحياة المرء النفسية القلبية التي يتزع المرء عنها في حديثه وفي سلوكه ، قال
تمالي : « إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فإن الله بكل شيء عليم^(٥) ، و« إن تبدوا
ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله^(٦) ، وقال عز من قائل : « واعلموا أن
إن يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ، واعلموا أن الله غفور حلِيم^(٧) ، وقال عليه السلام :
« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى^(٨) ، وقال : « لا يؤمن أحدكم
حتى يكون هواه نبياً لما حثت به^(٩) ، ونهى عن الحسد ، والحقد ، والكبر
والنورر ، والرياء والنفاق^(١٠) ، وعبر ذلك من الأعمال الخافية التي لا يطلع عليها إلا من
يعلم خائفة الأعين وما تخفي الصدور .»

ومعنى هذا أن المسلمين ، شعراء وغير شعراء ، ينبغي أن يلتزموا بحياة
إسلامية تهيمن على أفعالهم وأقوالهم ونواياهم كلها ، ذلك أن وراء المسؤولية والحساب
عذاباً أو نسيماً ، ولا يصيب أحدهما امرؤ إلا بما أسلف به^(١١) : « من كفر فقلبه
كفره^(١٢) ، ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يثبتون^(١٣) ، ولا تكسب كل نفس إلا عليها ،
ولا تزر^(١٤) وزر^(١٥) أخرى^(١٦) ، فالنار للطاغين جزاء^(١٧) وفاق^(١٨) ، والجنة
للمتقين كذلك جزاء^(١٩) وفاق^(٢٠) ، والأمران مما يرجعان إلى سر^(٢١) خائفة الإنسان^(٢٢) »

- (١) الأرجون التوبة ١٩ . (٢) الأرجون التوبة ٢٩ ، والمشار إليه « بهذا » هو اللسان
(٣) سورة الأَنْزَاب ٥٥ . (٤) سورة البقرة ٢٨٤ . (٥) سورة البقرة ٢٣٥
(٦) الأرجون التوبة ١١ . (٧) الأرجون التوبة ٣٦ .
(٨) انظر على التوالي في رياض الصالحين ص : ٣٨٩ ، ٣٩٥ ، ١٨٣ ، ٤٠١ .
(٩) سورة الروم ٤١ . (١٠) سورة الأَنْزَاب ١٦٤ .
(١١) انظر سورة التبا الآيات ٢١ حتى ٢٩ ، والنساء ١١٥ ، والمجبر ٣ ، والنمل ٨٤ ،
والطفتين ٣٦ . (١٢) سورة التبا من ٣٩ - ٣٦ ، والذهر ١٢ ، والمرسلات ٤٣ .

وهو امتحانه ليُعلم أي السبيلين يسلك في حياته : سبيل الرشاد أم الضلال^(١) ؟
وهنا قد يتساءل بعض القارئين : أليس من مزاج الشاعر أن يهوى القول
في حريته وفُسْححة وطلاقة ؟ أليس التزامه بالإسلام بنقص فُسْححة القول أمامه
ويحد المجال ١٢ وهنا ينبغي ألا ينفل عن أمور بها يتنازع دعاة الالتزام بالدين الحنيف
من دعاة الالتزام بغيره ، وبها يتضح أن مجال القول أمام الأولين يبقى رجباً
فسيحاً ، ولو التزموا .

الأمر الأول : ما يئنه الإسلام من أن الأصل في الأشياء الإباحة ، ولا
حرام إلا ما ورد فيه من التشريع نص صريح صحيح ينهى عنه ويجزئمه ، فإذا لم
يكن النص صحيحاً كبعض الأحاديث الضعيفة أو لم يكن صحيحاً في الدلالة على
الحرمة ، بقي الأمر على أصل الإباحة^(٢) ، وذلك ما يفسر قلة ما هو حرام في
الشريعة الإسلامية ورحابة ما هو حلال .

والأمر الثاني : هو أن في الحلال دافعاً ما ينهى عن الحرام ، وما تتبع دارس
شيئاً مما حرم الدين الحنيف إلا وجد له في الحلال عُشبة وبدلاً ، ومن يرجع
إلى الكتاب والسنة لا يكدر يقف على أمر لم يسن له حده ومناهجه ، على نحو
ما رأينا في التمهيد ومعنى هذا أن بمكثنة الناس شعراء وغير شعراء أن يجيؤوا في
ظلال الدين حياة ربانية خالصة . قال تمالي : « قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي
لله رب العالمين^(٣) ، وم ، خلال هذه الحياة الحلال ، يناولون على كل شيء فيها ثواباً من
ربهم ، قال عليه السلام : « المؤمن يؤجر في كل شيء ، حتى في اللقمة يرفها إلى
في امرأته^(٤) ، وروى البخاري « عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : قلت يا رسول
الله : ألي أجره أن أشفق على بني أبي سلمة ، إنما هم بني^(٥) ١٢ فقال : أفق عليهم ،
فلنك أجر ما أفقت عليهم^(٦) ، وروى أيضاً « عن أبي مسعود الأنصاري رضي

- (١) قال تعالى : « تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ، الذي خلق الموت والحياة
ليلوكم أيكم أحسن عملاً ، الملك ٢ ، وانظر سورة الكهف ٧ .
(٢) الحلال والحرام للدكتور يوسف القرضاوي « الطبعة الخامسة » ص ٧٠ .
(٣) سورة الأَنْزَاب ١٦٣ ، ونسكي : عبادتي . (٤) المسند ١٩/٣ .
(٥) التجريد ١٠١/١ .

الله عنه عن النبي ﷺ قال: إذا أنفق المسلم نفقة على أهله وهو يحسبها كانت له صدقة، (١). وعلى هذا النحو يبين خاتم الأنبياء أن الشهادة في سبيل الله لا تقتصر على من يقتل في هذه النية أو الغاية فحسب، بل تشمل أيضاً من يموت مؤمناً في سبيل الله، ومن يقتل دون ماله، ومن يفيض في الطاعون، وساحب المهدم، والبطون، والفرين (٢)، وأن د من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع، (٣)...

والأمر الثالث ما يتسم به الدين من مبادئ كلية لا تستنكر تنوع الفروع الداخلة فيها، ما سارتها ولم تخرج على خطوطها المربطة اللاحية، فإذ كانت في الشعراء من هو أميل إلى التنسيب الذاتي، أو التمتع الفني، أو التزعة الشعبية، أو كشف الزيف والريغ، أو إزهاج الوعظية الحسنة... فإن كلاً من هؤلاء يجد في ظل الدين فسحة رحمة ومكاناً أميناً، ما استنزل هو به، واعتهم بسبيل من سئل حلاله.

والأمر الرابع: أن الدين يبارك قوى الخير وجوانب الارتقاء في الإنسان، وينصرها على فوازع الشر وعناصر الضعف فيه، وقد مر بنا عند الحديث عن المجتمع أن الفن الأصيل لا يبدؤ أن يبي - على كل حال - ولا يهدم، أي لا يبدؤ أن يهتف للقوى المنسامة في الإنسان ويدفعها ما استطاع إلى البس، وأسبغ، في الوقت الذي يفتح أهواء المايلة ورغائمه المتكسفة. ومعنى هذا أن الفنون، إذا استقامت على ذلك، إنما يعمل عملاً يحظى برضاء الدين وثباته؛ يقول توفيق الحكيم: «إن مصدر الجمال في الفن هو ذلك الشعور بالسمو الذي يثمر نفس الإنسان عند انصافه بالأثر الفني... من أجل هذا كان لا يبدؤ للفن أن يكون مثل الدين قائماً على قواعد الأخلاق» (٤).

٢ - الالتزام في شعر الفقهاء:

ولم «أطل» كل هذه الاطالة إلا لأبين أن شعر الفقهاء في التزامه الدين

(١) التبريد ١٢٦/٢. (٢) انظر كل ذلك في رياض السالمين ٣٣٢. (٣) رياض السالمين ٣٣٨. (٤) فن الادب ٧٤، وانظر الدين والجمال لأبي النصر أحمد الحسبي مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٤، ٦٧، وفن الشعر ١٧٩ وما بعدها.

الحنيف إنما كان يتزع عن أمر دعاه إليه الاسلام، ففضى في موضوعاته المختلفة من الحكمة والنزل والفخر والوصف والصاب والمجاهد والرقاء والمدح وتصور المجتمع بعلي الشعائر الدينية وبرمي عن مبادئها ويكون أشبه بالترداد لمساكن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ولا يكاد يقابل القارئ لهذا الشعر معنى يخالف ما في تلك الآيات والأحاديث، اللهم إلا نحو ما كان لمروة بن أذينة من غزل حسي أو عصبية جاهلية.

وما من شك أن تنزول شاعر بامرأة مبيحة - غير حلاله - تنزلاً حسيًا أمر حرمه الاسلام، ذلك بما يكون فيه من تصوير مثير الأعضاء، وقد قال النبي ﷺ في مثل هذا التصوير: «لا يباشر المرأة المرأة فتنتهبا لزوجها كأنه ينظر إليها» (١)، وبما يكون فيه من هتك للحرمات التي حرم الاسلام على صنونها، فقال عليه السلام: «إن أموالكم ودماءكم وأعراضكم عليكم حرام» (٢)، وبما يؤدي إليه من هتك الفحشاء في المحيط الاجتماعي، ومعلوم أن ما أدى إلى حرام فهو حرام، قال تعالى: «إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب في الدنيا والآخرة» (٣). وإذن فما تنزول عروة فيه يمدى قبل قيراتها، إن كان تزوجها، وما شئب فيه بغيرها، ممن ذكرهن، إن كنن عروبت قبلها ولسنن أسماء خيالية، تنزلاً واصفاً مثيراً، وتشبيهاً مشهوراً، هو حرام منهي عنه (٤).

وكذلك الشأن في أمر العصبية، فقد نهى الدين الحنيف عن كل صورها، وحرم على المسلمين أن يجروا أي زعة من زعاتها أو يدعوا إليها، وأعلنت النبي ﷺ براءته ممن يفعل ذلك فقال: «(ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية)» - رواه أبو داود - فلا

(١) التبريد ١٢٤/٢. ويأمر الأمر؛ وليه بنفسه، أي لا تطلع منها على ما لا تبديه لغيره الرجال ثم تنقل صفاتها إلى زوجها عي. (٢) للسند ٢٧٣/٣ (٣) سورة النور ١٩. (٤) قال الامام الشافعي: «من شيب بامرأة بيننا ليست ممن يجل له وطؤها حين شيب فأكثر فيها وشهرها، وشهر منها بما ينبغي، وإن لم يكن زنى ردت شهادته» ومن شيب فلم يسم أحداً لم ترد شهادته، لأنه يمكن أن يشيب بامرأته وجاريته» (الام ٢١٤/٦).

امتياز للون معين من البصرة، ولا لجنس خاص من الناس، ولا لرقعة من الأرض،^(١) على أن وقوع شاعر في بعض قوله في الأيتم لا يخرج من دائرة الالتزام، لأنه لا يخرج من ساحة الإسلام الذي لا ينس له - إذ ينظر إلى فعلته - حسناته الأخرى، وما أكثر أن يتجاوز عنه إذا ما قاب وآب؛ قال سبحانه في الحديث القدسي: «بأن آدم إثمك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مفرقة»^(٢)، وقال عليه السلام: «إن العبد لم يذنب الذنب فيدخل الجنة. قيل كيف؟ قال: يكون نصب عينيه ثابتاً قارماً حتى يدخل الجنة»^(٣). ولعل مروءة أن يكون قد قرء نصب عينيه ما زل فيه، وأنه كان يدفعه إلى مثل قوله:

مُزاع إذا الجنائز قابلتنا ومحزناً بكاه الباكيات
كروعة نلّة لمغار ذنب فلما غاب عادت راتعات^(٤)

كما كان يدفعه إلى التصدي لقبائل معد في سبيل الله بعد ما كان قد افتخر بها من قبل، وقد تقدم ذلك عند الحديث عن هذا النرض. وإذا تركنا قضيتي النزول الحسي والمصيبة الجاهلية في شعر ابن أديبة واجهتنا مشكلة ابتكار القصص التقليدي الخيالي غير الواقعي، مما رأيناه عند الحديث عن غزله، وهي مشكلة قد يسلكها بعض الدارسين في الكذب الذي نهى عنه الإسلام ودفنه، فينفلون بذلك أن يميزوا بين الكذب المحرام وبين ابتكار الحكاية ونحوها مما هو أشبه بأن يكون ضرباً الأمثال. فابتكار الحكاية - في حد ذاته - لا يبدء كذباً محرماً ولا إنفاً موبقاً ما لم يتجاوز من الإسلام أشياء ثلاثة:

الشيء الأول: أن يكون ابتكار الحكاية طيب المنزى حميد النية، لقوله عليه السلام: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»^(٥).

- ١ (الحلال والمحرّم) ٢٣٧ . ٢ (الأربون التوبة) ٢٧ .
٣ (الزهد والرفائق) ٥٢ . ٤ (شعر مروءة) ٣٠٩ .
٥ (الأربون التوبة) ١١ ، وقد مر الحديث من قريب .

والشيء الثاني أن يكون محمود الأثر، قال تعالى: «ونكتب ما قدّموا وآثارهم»^(٦)، وقال عليه السلام: «من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء»^(٧)، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»^(٨).

والشيء الثالث أن يكون أسلوب الحكاية لا يفوي بمشكر ولا يزيته ولا يبرئه ولا يدافع عنه، ذلك أن ما أدى إلى المحرام فهو حرام. وليس يعني هذا أن ليس باستطاعة فنّان أن يتناول في آثاره باطلاً ولو كان مبتدأً أن يكشف مضاره واخطاره؛ وإنما يعني ألا يتناول ذلك الباطل على نحو يزيد منه ولا ينقصه، ويجنبه إلى النفوس ولا يكرهه.

يقول توفيق الحكيم: «إني لأشدد الناس نمشكاً بجرمة الفن وإدراكاً مقدسية هذه الحرية، ولا أتصور فناً لا بصور الرديئة، كما بصور الفضيلة، ولا يبرز القبيح، كما يبرز الحسن. وإن الدين أيضاً - في تنزيله - بصور لنا رجس الشركيين، وإثم الكافرين، وقبح الانحراف والفسدين، كما يبرز لنا فضل المؤمنين، وإحسان المحسنين، ولكن المقصود ليس حرية التصوير، فهذه مكفولة في الفن، ملحوظة في الدين، إنما المقصود هو ذلك الإحساس الأخير الذي ينقله الفن والدين إلى النفوس. ما من ريب في أن الإحساس الأخير الذي ينقله الدين إلى النفوس، مهما يكن لون الصورة، ونوع التصوير، هو إحساس أخلاقي؛ فهل هذا هو واجب الفن أيضاً؟ أو أن الفن حر حتى في إحداث الأثر الذي يريد غير مقيّد حتى في إقرار المشاعر غير الأخلاقية في نفوس الآخرين؟.. يقول جويو: إن الفن غير الأخلاقي هو على كل حال أخطر مرتبة حتى من وجهة النظر الفنية الخالصة، ذلك أن الفن المالي ليس ذلك الذي يثير في النفس أحرّ المشاعر واعتفانها فحسب، ولكنه ذلك الذي يثير فيها أكرم المشاعر وأرحمها...»^(٩).

وإذا كان أدب الحكيم إذ يبلغ الرذيلة لم يبرأ من تزيين لها في مواضع غير

- ١ (سورة يس) ١٢ . ٢ (رياض الصالحين) ٦٣ .
٣ (فن الأدب) ٧٤ .

قليلة، فإن من الممكن ان نتخذ الأمانة الهادية في هذا الشأن من القرآن، فهو يصور أشدّ المواقف إثارة، بيد أن الفارسي - مع إحساسه بمحيوية المشاهد - لا يستمر حرجاً، ولا يضطرم له غريزة ولا هوى، انظر مثلاً قصة امرأة العزيز ويوسف (١)، نجد شحنات انفعالية كثيرة، إلا ان مواقف التقوى ولفترات الايمان المتناثرة بين تلك الشحنات الانفعالية بحسبنا، تجعل القارئ يحسّ حيويتها دون أن تسيج غرائزه (٢)، ومن يقرأ هذه القصة القرآنية ير في نهايتها كيف يرتفع الذكر الحكيم بامرأة العزيز زليخا من سقطتها، فيفتح لها ابواب التوبة (٣)، لتلج سبيل الاستقامة من جديد (٤).

وإذا أردنا ما يدلّ على حيل الابتكار - في حدّ ذاته - وجدنا ثمة أمرين: أولهما ان الابتكار - كالتصوير - من خصائص اللذة وطبيعتها في تشويق الكلام ترجمان الحياة، وثانيها ما زناه في آيات الذكر الحكيم والأحاديث النبوية من هذه الظاهرة (٥).

ومعنى هذا أن عروة بن أذينة لم يكن يكسب إثماً وبسبارة أخرى، لم يكن يخرج من الالتزام الإسلامي وهو يتنكر قصصاً تقليدياً خيالياً لا واقع له في حقيقة

- ١) سورة يوسف الآية ٢٣ وما بعدها.
- ٢) من ذلك: «ورأودته التي هو في بيتها عن نفسه وغفت الابواب وقالت حيث لك » ويصف قولها جواب يوسف: « قال -عاذ الله- إنه ربي أحسن مثواي، انه لا يفلح الظالمون» فيصف جوابه شحنة الاثارة لتحول خشية وتمكيراً. ومن ذلك: « واستبقا الباب ولدت قيسه من هير » وعلى هذه الطاقة الليرة بنف المفاضة: « وألقيا سيدها لدى الباب » وتبعها عطف الفارسي على يوسف وهو يتهم، وتعبه من كبدها: « قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم » فيتغير الانفعال الأول مرتين. انظر سورة يوسف ٢٣ و ٢٥.
- ٣) انظر قوله تعالى: « واستغفري لذنبك، إنك كنت من الخاطئين » سورة يوسف ٢٩.
- ٤) انظر حكاية القرآن الكريح قولها: « وما أبرئ نفسي، إن النفس لأمارة بالسوء، إلا ما رحم ربي، ان ربي غفور رحيم » سورة يوسف ٥٣.
- ٥) انظر ابتكار الشخصيات والحوادث في قوله تعالى: « ضرب الله مثلا عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء، ومن رزقناه منا رزقاً حسناً، فهو يفتق منه سرّاً وجهراً، هل يتوون؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون. وضرب الله مثلا رجلين أخذهما أبيكم لا يقدر على شيء، وهو كل على مولاه أبنا يوجهه لا يأت بخير، هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم؟ » (سورة =

الإمر (٦)، غير أنه يؤاخذ بما قد زواه في قصصه أحياناً من غزل حسيّ مصور في أثنى معيشة غير حلاله على نحو ما تقدم (٧)، أو ما فيه من بغي وافتخار (٨)، أو ما يشبه ذلك مما أوسدت الفريضة ابواب الخوض فيه.

ونتهي بما سلف إلى أن شعر الفقهاء لهذه الفترة كان في جملته شمرأ إسلامياً ملتزماً يرعي عن مبادئ الدين الحنيف ويستشير بهديته. واغلب الظن ان الدكتور عز الدين إسماعيل كان يتغل عن مثل هذه الأشعار حين ذهب إلى « أن الإسلام لم يكن له أي تأثير إيجابي على الأدب والمقدّم (٩)، وان الشمرأ لم يكونوا يتأثرون القرآن إلا في تاحيته الشكائية فحسب (١٠)، « أما ما فيه من اخلائية فقد كانوا عنها بعيدين كل البعد (١١)، وأنّ النقاد لم يأبهوا لهدف الأخلاقي وعلى الاطلاق (١٢)، « بل وأنهم أصروا في كل حالة على أن « الفن القوي لا يمكن ان يعيش في كنف الدين

- = التحل ٢٥ و ٢٦). فالعبد المملوك، والرزوق رزقاً حسناً. والابكم، والأمر بالعدل، شخصيات مبتكرة. وعجز المملوك، وانفاق الرزوق، وفقدان الابكم القدرة والنسج والكتابة، وأمر العادل بالرشد، حوادث مبتكرة. وقد ضرب الله سبحانه هذين للذين نفسه والأصنام التي يبيدها الشركون، وقيل للؤمن والشكرك (انظر تفسير البياضي ٣٦٦ و ٣٦٢). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « مثل من مثل الانبياء كرجل بين داراً فأاكلها وأحسنا الاموضع لينة فعل الناس يدخلونها ويحبون ويغولون: لولا موضع الينة، فانا الينة وأنا عم النبي » (التبريج ٥١/٢) فالرجل الباني، والناس، شخصيات مبتكرة، وتعبير الدار، وأكلها، واحسانها، ودخول الناس، وتبجيلهم، وفولهم لولا موضع الينة حوادث مبتكرة، والآيين والحديث - كالحكاية - متزي واضح، فانه تعالى يلفت ال الفرق بين مقام الاله وقدرته وعدله وبين مقام العبد وعجزه وقصوره أو الفرق بين الشكرك المحذول والمؤمن الوفق، على التفسير الآخر، وبين الحديث حاجة الناس الى المصطفى عليه السلام. وانظر امثلة أخرى لابتكار في القرآن والحديث في سورة الأنعام ٢١ والرعد ١٥، وفي رياض الصالحين ١٢٣ و ٢٧٤ و ٢٧٦، والتبريج ١١٧/٢ و ١١٨ و ١٢١، وأعلام المؤمنين ٢٨١/١. انظر على سبيل المثال شعر حمزة ٩٥. ٢) انظر القصيدة الخامسة من شعره الأبيات من ٩ حتى ١٦ من ١٢٢ وما بعدها. والقصيدة السابعة الايات من ١٧ حتى ١٩ من ١٩٦ وما بعدها. ٣) انظر شعر حمزة ١٠٤ وما بعدها، الأبيات من ٢٣ حتى ٢٨، ومعلوم قول خاتم الانبياء: « ان الله تعالى أوحى الي ان تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد » (رياض الصالحين ٣٩٤). ٤) الاسس الجمالية في النقد العربي ١٨٥.
- ٥) المصدر السابق ١٨٦. ٦) المصدر السابق ١٨٧. ٧) المصدر السابق ١٨٤.

أو الأخلاق، (١)، و« أن هذا الموقف لم يكن غريباً في أمة تفصل فصلاً تاماً بين الدين والشعر، أو تجعل النزعة الدينية من معطلات الشعر، » (٢).

ومن فون ريب قد وقع الباحث في سهو كبير في «نكراته» تأثير الإسلام في الشعراء أو النقاد على السواء. أما الشعراء فمن الحق أنهم تأثروا بالإسلام في معانيه وأفكاره وأساليب تعبيره جميعاً، وإن كان ذلك التأثر متفاوتاً بينهم بطبيعة الحال، وقد رأينا خلال هذا البحث كيف التزمت مجموعة الشعراء الفقهاء في جمهور نتاجها بالإسلام الحنيف، وردت مضامينه ومقاصده، واستوحيت آيانه وأحاديثه، وإذا تركنا شعر الفقهاء وجدنا كبار الباحثين يقرّون لتأثير الإسلام في الشعر ما حاول الدارس أن ينكره؛ يقول الدكتور شوقي ضيف: « أثر هذا الكتاب العظيم آثاراً بيّدة في اللغة العربية، فقد حوّل أُنسها من قصائد في النزول والحامسة والأخضد بالثأر والفخر ووصف الأبل والخليل والسيوف والرماح ومن حكم متناثرة لا ضابط لها ولا نظام، إلى أدب عاظمي يخوض في مشاكل الحياة والجماعة، وينظم أمورها الدينية والدينية، » (٣). ويسود الباحث مرة أخرى فينقض فكرة أن الإسلام انحصر عن أثر ضئيل في أشعار الحضرميين، ويقول: « هو زعم غير صائب، بل هو زعم يسرف في تجاوز الحق، » (٤).

ويقول الدكتور يوسف خليف: « كان هذا التأثير (الإسلامي) يظهر في الألفاظ والمعاني، كما كان يظهر في الأساليب والصور، » (٥). وتقول الدكتورة بنت الشاطي: « التطور الهام الذي حدث هو أن الإسلام أراد لشاعر القبيلة أن يصير شاعر الأمة، فلم يهجر بهذا ذاتية الشاعر، بل أراد لها أن ترتحب فلا تود محذوفة بنطاق الأسرة أو القبيلة، » (٦). وقد استطاع أن يهتدي إلى هذه الحقيقة طائفة من المستشرقين، فقال غوستاف فون غرينباوم: « لم يمض جيلان على ظهور الإسلام حتى امتلأ الأدب العربي بالموضوعات وبصور التعبير المتصلة بالواقع الدينية، » (٧).

(١) المصدر السابق ١٨٠ . (٢) المصدر السابق ١٨٣ .

(٣) الفن ومذاهبه في النثر العربي ٤٦ . (٤) العصر الإسلامي ٥ وانظر صفحة ٣٢ .

(٥) حياة الشعر في الكوفة ٦٥٨ . (٦) قيم جديدة ٨٣ .

(٧) دراسات في الأدب العربي « ترجمة احسان عباس . طبع بيروت ١٩٥٩ » ص ٤٠ .

وإلى جانب ما أكتفه هؤلاء الباحثون نجد دراسات موسّمة جادة تبين آثار الإسلام في الشعر، وتجعل المجاملة في ذلك ضرباً من اللغو والتكرار، ومن تلك الدراسات موسوعة شعر الدعوة الإسلامية التي ينسرف على إخراجها الدكتور عبدالرحمن الباشا، والتطور والتجديد في الشعر الأموي، والعصر الإسلامي، للدكتور شوقي ضيف، والأدب في موكب الحضارة الإسلامية للدكتور مصطفى الشكعة، وشعر الفتوح، والفرق الإسلامية في الشعر الأموي، للدكتور النعمان القاضي، والإسلام والشعر للدكتور يحيى الجبوري، وأثر الإنجازات الدينية في الشعر العربي للدكتور شوقي حمادة، وشعر الزهد في العصر البياسي الأول للدكتور شوقي رياض أحمد، وأثر القرآن في الأدب العربي للدكتور ابنسار الصغار، وأثر القرآن الكريم في اللغة العربية لأحمد حسن حمد، والأدب في خدمة الحياة والمقيدة لعبد الرحمن المويشق . . .

وأما النقاد فلا نكران أن فريقاً منهم تقدوا الشعر، ولم يتخذوا من الدين أو الأخلاق أساساً رفضون به شاعراً ومخضون آخر، (٨)، غير أن الذي يستنبط من هذا أنهم لم يأبهوا للهدف الأخلاقي « على الإطلاق، أو أنهم أصروا في كل حالة على أن « الفن » القولي لا يمكن أن يبش في كنف الدين أو الأخلاق، إنما يقع في خطأ بالغ. ذلك أن النقاد في الوقت الذي لم يتخذوا معيارهم في النقد فيه من الدين أو الأخلاق، لم يتخذوا ذلك المعيار أيضاً معياراً للأخلاق أو الدين. ولم يشعروا أسباب الجمال إلى كفر ولا مجانة وأهم من هذا أن ليس كل النقاد كانوا ينحدون المقاييس الفنية دون أن يربطوها بالإسلام، بل قد كان إلى جانب هؤلاء نقاد يركنون الهدف الخلقوي ويمثلون من شأنه وبصرون إصراراً على أن الفن القولي لا بد أن يبش في كنف الدين والأخلاق.

ويمكن القول إن هذا التيار قد ابتدأ منذ عهد الرسالة، فقد روي أن النبي ﷺ كان يحث حسان بن ثابت ليرد على الشعراء المشركين ويقول: « إن الله

= وانظر تأثير الإسلام في الشعر أيضاً: أثر القرآن في الأدب العربي للدكتور ابنسار الصغار ص ٣ وما بعدها ومن ٥٩٠ .

(٨) الأسس الجمالية ١٨٥ . وانظر أمثلة من آراء هؤلاء النقاد في الرسالة ٦٢، وقد الشعر ٥٠٤ .

ليؤيده روح القدر ما نافع عن نيته، (١) . وكان يذم رائد النزول المكتوف ويقول فيه : « اسرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار » (٢) ، « كما جاء عنه أنه توعد الشعراء المنجثئين الذين يهشون أعراض الناس بالباطل قوله : « من قال في الإسلام هجاء مقدماً فلسانه هدر » - الممددة ١٧٠/٣ - (٣) .

وقد اهتدى الصحابة في نقد الشعر بطريقة رسول الله فكان الفاروق يمانع على الهجاء ، ومن المروف كيف حبر الحطينة عندما هجا الزرقان بن بدر ، وأيضاً فقد تقدم إلى الشعراء ألا يشبب أحد بمرأه إلا جلدته (٤) ، وكان عثمان بن عفان يحبس في الهجاء (٥) ، وكان عمر بن عبدالعزيز كجده الفاروق يؤاخذ الشعراء إذا شيبوا ، وقد ذكر ابن أذينة يوماً عنده فقال : « نعم الرجل ابو عامر ، على أنه الذي يقول :

وقد قالت لأراب لها زهر تلاقينا (٦)

وهو يريد القصيدة التي منها هذا البيت ، وقد مر بنا ضحك ابن عائشة كما فيها . ومن الذين يسلكون في هذا التيار من النقد الإمام الشافعي ، وقد بلغ به إعلاء الشعر الخلق أن أفتى بحيل الزواج على مثل بيت من الشعر لأبي الدرداء عندما سئل : « أيجوز أن يتزوج الرجل على بيت شعر ؟ قال : إذا كان البيت مثل هذا فنعم :

يريد المرء أن يعطى مناه ويأني الله إلا ما أراد (٧)

ويورد في كتابه الأم فيبين القول في الهجاء والمدح والتشبيب ، فبدأ نهاده من ينقص في شعره المسلمين ، ويكثر الوقية بين الناس ، أو يمدحهم مدحاً كادياً

(١) زهر الآداب ٢٠٠/١ . (٢) طبقات الشافعية للسبكي ١١٩/١ .

(٣) شعر المنصرمين وأثر الإسلام فيه « بغداد ١٣٨٤ » ص ٤٢ .

(٤) انظر الأغانى « دار الكتب » ٣٥٦/٤ .

(٥) انظر معاهد التنصيص لمدرجهم العباسي « طبعة السعادة بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد »

١٨٩/١ . (٦) الأغانى (الهيئة المصرية) ٣٢٧/١٨ .

(٧) مناقب الشافعي للبحراني ١٠٠/٢ .

مخاضاً بما ليس فيهم ، أو يشبب بمرأة بينما ليست تحمل له حين التشبيب ، ويكثر من ذلك حتى يشهرها (١) . وقد رأينا عند الحديث عن المجتمع كيف عزل المأمون قاضي دمشق لقوله شعراً باطلاً ، من دون أن تشفع له سلاسة شعره . ويستمر هذا التيار النقدي ، وفي كل حين ينضم إليه أنصار مؤازرون ، وأما عما يلفت النظر أن نجد الإمام الغزالي في كتابه « إحياء علوم الدين » إذ يجعل الأشار من المعلم الباحة ، ويمدحها من فرض الكفاية ، يشترط ألا تشتمل على سخف ، فيقول : « وأما المباح منه (العلم غير الشرعي) فالعلم بالأشعار التي لا سخف فيها ... » (٢) .

ولاريد أن هذه الأمثلة من النقد الديني تصحح ما رآه الباحث من أن الأمة الإسلامية تفصل فضلاً تاماً بين الدين والشعر ، فهذا نيتها بشد الشعر إلى الدين شدةً محسناً ، وهما م أولاء أمتها ينجون سبيلاً ، وأعلى الطن ان المدارس قد غفلت ، وهو يصدر رأيه ، عن سادة الشعر الأولي ، وهي الكلمة ، وغفلت عن الحدود والضوابط التي وضها الدين الحنيف للكلمة ، أي كلمة ، وغفلت عن الحديث الذي يحرم على الشعر بحسب قيومه ومادته ، وهو قوله عليه السلام : « إننا الشعر كلام ، فمن الكلام خبيث وطيب » (٣) .

وإذا انتقلنا إلى ما يراه الباحث من أن هذه الأمة تحمل النزعة الدينية من معطلات الشعر علمنا أنه يريد شيئاً الأول ما أثار عن الأصمعي من أن الشعر نكيد بابه الشعر ، فإذا دخل في الطير لان وضمف (٤) . وهي عبارة غريبة بقيمة استدله عليها بما وجد من ضمف أشعار حسان بن ثابت في الإسلام عنها في الجاهلية ، وهو بذلك يغفل عما دخل شعره من وضع ، وينيب عن بابه « بند الشمة بين ديار قوم حسان في يثرب وبين الضامنة أو الناذرة الذين كان يمدحهم في الجاهلية وهو « بند » كان يوقر له من الوقت ما يختص به أشعاره وينقشها ، الأمر الذي لم يتمكن منه في شعره الإسلامي الذي ألفت كثرته أيام المارك أو إثبات الإعداد لها ، ومع كل هذا يستطيع المدارس أن يقف على قدر صالح من قريضة الجديد يبلغ فيه

(١) الام ٢١٢/٦ . (٢) الاحياء ٢٣/١ .

(٣) الممددة ١٤١/١ ، وانظر دلائل الاعجاز ٢٠ .

(٤) انظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب لطفة أحمد ابراهيم ٧٠ .

الباب الثالث

الشراء

مستوى فنياً راقياً .

والشيء الثاني الذي يُلحح إليه الباحث ما ينحو العبارة المشهورة : « أصدق الشعر أكذبه » (١) ، ولذلك لا يفرق الدكتور عن الدين اسماعيل بين الكذب الفبي والكذب الخلفي (٢) ، مع ما وجدنا بينهما من اختلاف ومن أن الضرب الأول إنما يُسلك في الابتكار وهو من خواص المربية ، وهو ما لا يجمل الدين فيه من حرج ، وهو ما تُرجح أن العبارة المشهورة « أصدق الشعر أكذبه » لم تكن تقصد سواء .



(١) نقد الشعر ٥٦ ، وانظر المصداق ١/١٠٠ .

(٢) الاسس الجمالية ١٨٤ .

الفصل الأول

في العصر الإسلامي

١ - العصر الراشدي : تمهيد أولي لبداية شعر الفقهاء

رأبنا عند حديثنا عن نشأة الفقه كيف كان بين الصحابة فتمت حلت عبء هذا العلم الناقص بعد موت النبي ﷺ ، وقد كان من هؤلاء الصحابة الفقهاء من يقول الشعر ، ويمكن أن نعد منهم الخلفاء الأربعة الذين « ما منهم إلا من قال الشعر » (١) ، إلا أن ما نسب إليهم منه يسير قليل ، وفيه ، إلى ذلك ، موضوع كثير زيفه عليهم أهل المآرب والأهواء ، أو الجهة بتاريخ الشعر ، أو المصدقون الذين لا يبالون إذا أجثوا أمراً أن يعثنيوا له في الحمد والثناء ، ويبالون في ذلك ، ويؤيدوا عليه ما قد يكون هو له أول المنكرين ، ولكن هذا لا يعني أن فخرهم على اشعارهم الاستار ، فإن من الممكن - بالبحث والتفد - أن نميز ما قالوه حقاً ، وما حمل عليهم مسترشدين بالمصادر المعتمدة القريبة من عهدهم ، ولا سيح اتى أئمتها أهل الهداية والتحقيق .

ومما روي لأبي بكر الصديق مقطوعة في رثه النبي عليه السلام تبين لجملة المسلمين برحيله ، وانقطاع الوحي بوفاته ، وما ترك فيهم من سنة طاهرة :

فجعنا بالنبي وكان فينا إمام كرامة ، نعم الإمام
وكان قوامنا والرأس منا فنحن اليوم ليس لنا قوام
نموج ونشككي ما قد لقينا ويشكو فقده البلد الحرام
فقدنا الوحي إذ ولّيت عنا وودعنا من الله الكلام

(١) العبد ١٤/١ وانظر تاريخ الخلفاء ١٨٣ .

لقد أورتنا ميراث صيدقٍ عليك به التحية والسلام (١)
ومما احتفظت به المصادر للخليفة الأول أيضاً ثلاث مقطوعات ينسب فيها النبي ﷺ (٢) ، وأبيات ينسب فيها بلال بن رباح بمقتل أمية بن خلف ، وقد كان بسوءه سوء المذاب بمكة ، فيخرجه إلى الرمشاء فيلقي عليه الصخرة المطيعة ليفارق دين الإسلام فصممه الله من ذلك :

هنيئاً زادك الرحمن خيراً فقد أدركت تارك يا بلال
فلانكساً وجيدت ولا جباناً غداة تنوشك الأسل الطوال
إذا هاب الرجال ثبت حتى تحالط أنت ما هاب الرجال
على مفض الكلوم بمشرفي جلا أطراف متنيه الصتقال (٣)
على أنه لا بد من الإشارة إلى ان القصيدة التي رويت له عن ابن اسحق ومطلبها :

أمن طيف سلمى بالبطاح الدمامث

أرقت أو أمر في المشيرة حادث (٤)

إنما هي محمولة عليه ، وقد نسبها ابن هشام في سيرته ، ويثبت أن أنسب أهل العلم ينكر هذه القصيدة لأبي بكر رضي الله عنه ، (٥) .

ومما صح لأبي بكر المؤمنين عمر بن الخطاب بيتان قالهما بعد أن طمسه الجوهري وشعر بدنو الأجل :

(١) أسباب الأشراف لابن الأثير ١/١٩٢ ، وقد أشار إلى انه نقلها عن ابن سعد عن الواقدي عن اسماعيل بن إبراهيم بن عتبة . (٢) انظر الطبقات الكبرى ٢/٣١٩ و ٣٢٠ . (٣) زهر الآداب ١/٣٤١ ، وانظر البيهقي الأولين في أسباب الأشراف لابن الأثير ١/١٩٣ ، والنكس : الضيف ، والأسل : الرماح . (٤) الصفة ١/١٣ ، وسيرة ابن هشام ٣/٢ . (٥) سيرة ابن هشام ٣/٢ ، هذا وقد روى له السهيلي مقطوعة يذكر فيها قصة النار في الروض الآف ٢/٦ .

فأوعدني كعب ثلاثاً أعدّها ولاشك أن القول ما قال لي كعب
وما بي حذار الموت إني لميت ولكن حذار الذنب بقبمه الذنب^(١)

وكذلك روى له المصري قوله يوم فتح مكة :

ألم تر أن الله أظهر دينه على كل دين قبل ذلك حائداً
وأمكنه من أهل مكة بعدما تداعوا إلى أمر من النبي فاسد
غداة أجال الخيل في عرساتها مسومة بين الزبير وخالد
فأمسى رسول الله قد عز نصره وأمسى عباده من قتيل وشارد^(٢)
وما من شك أن بعض الرواة نحلوا الفاروق شراً لم يقه، ويمكن أن نمد
منه هذه الأبيات في رقاء أبي بكر :

ذهب الذين أحبهم فمليك يا دنيا السلام
لا تذكرن الميش لي فالميش بدم حرام
إني رضيع وصالحهم والطفل يؤلمه الفطام^(٣)

فالعمل المضارع الذي لم يحزم بلا، والافتاء بتعريم الحياة بعد وفاة الصديق
وتفسير « رضيع وصالحهم » كل ذلك لا يتألف مع الفترة التي عاش فيها عمر، ولا
تصوره من الفاروق أمير المؤمنين.

ومن روي لهم بعض الأبيات - لهذه الفترة - أبو الدرداء «عويش بن عامر
التوفي سنة اثنتين وثلاثين للهجرة - وهو أول قاض دمشق - وهو القدي يقول :
يريد المرء أن يؤتى مناه ويأبى الله إلا ما أرادا

(١) تاريخ الطبري ١٩٢/٤ والسدة ١١/١، وكعب وكعب الاحبار وكان أندر عمر .
(٢) زهر الآداب ٣٦/١ .
(٣) المستطرف ٢٨٨/٣ وانظر اشعاراً أخرى لعمر في أنساب الاشراف [١٠٩٢] ، وأدب
الدنيا والدين ٢٦٦ ، وشعر الدعوة الاسلامية في عصر النبوة والخلفاء الراشدين ٦٥ .

يقول المرء فأنتي ومالي وتقوى الله أحسن ما استفاداً^(١)
وكان يناصر أبا الدرداء الخليفة ذو النورين عثمان بن عفان، وقد رويت له
هذه الحكمة الرشيدة :

غنى النفس يغني النفس حتى يكفها وإن مسها حتى يضربها الفقر
وما عسرة فاصبر لها إن لقيتها بكأنة إلا سيئتها يسر^(٢)
كما كان يقول إذا سمع الأذان :

يا مرجحاً بالقائلين عدلاً وبالصلاة مرجحاً وأهلاً^(٣)

ويعد الإمام علي في طليعة الخلفاء الراشدين شاعراً، وقد روي عن النبي
أنه قال : « كان أبو بكر يقول الشعر، وكان عمر يقول الشعر، وكان عثمان يقول
الشعر، وكان علي أشعر من الثلاثة »^(٤) .

والصادر المتقدمة التي احتفظت بأشعاره تجعل الباحث يطعن تماماً إلى اكتساب
الخليفة أبي السبطين لهذه الموهبة^(٥) ، غير أنه - في الوقت ذاته - إن يطعن إلى
الديوان المنسوب إليه، فمن المؤكد أن فيه موضوعاً كثيراً^(٦) ، ومن الحق أن شعر
الإمام سواء في الديوان المنسوب إليه أو في غير الديوان تعرض لتزييف كبير،
وبدلنا على ذلك خمسة أمور :

الأول : ما لاحظته الدكتور السيد يعقوب بكر من طابع شعبي في بعض
الأشعار على نحو لا يمكن صدوره عن الإمام علي^(٧) .

(١) الفتوح الوهية ١٧٥ . (٢) معجم الشعراء ٨٨ والسدة ١١/١ .
(٣) معجم الشعراء ٨٨ وانظر مقطوعة أخرى لعثمان في ادب الدنيا والدين ٢٦٤ ، رواها عن
« بعض الآداب » . (٤) تاريخ الخلفاء ١٨٣ .
(٥) انظر اعيان الشيعة ١٦٨/٣ ، وعلي بن ابي طالب لأحمد نيور ١٦ وما بعدها . ومقدمته
لشاعر علي الجندي ٢ ، وبجاء للسيد يعقوب بكر في الرسالة السنة العاشرة من ٦٢٢ و ٦٦٣ ،
والاسلام والشعر (مكتبة النهضة ببغداد ١٣٨٣ هـ) من ١٢٦ .
(٦) انظر اعيان الشيعة ١٧١/٣ ، والرسالة السنة العاشرة من ٧١٨ وما بعدها ، وعلي لأحمد
نيور من ١٦ ومقدمته ٩ ، والاسلام والشعر ١٢٦ و ١٢٧ . (٧) انظر الرسالة من ١٠ من ٧١٩ .

والثاني: ما يبدو فيه أحياناً من ركافة لفظية يستبعد أن تسلك في شعره،
ويمكن أن نمد من ذلك أبياته التي يقال إنه خاطب بها معاوية:

محمد النبي أخِي وصهري وهمةُ سيدُ الشهداء عمي
وجعفر الذي يضحى ويمسي يطير مع الملائكة ابن عمي
وبنت محمد مكني وعرسي مشوب لها بدمي ولحي
وسبطا أحمد ولدائي منها فأيتكم له سهم كسهي
سبقتكم إلى الإسلام طراً صغيراً ما بلغت أوان حلبي^(١)

وهي أبيات تخالف في مستواها الفني مخالفة واضحة ما سوف نراه من أشعاره.
والثالث: ما يلمح في بعض الأبيات من معانٍ يستغرب انتسابها إلى الامام،
ويمكن أن أمثل لذلك بأبيات روي أنه قالها في وفاة رسول الله ﷺ:

غرُ جهولاً أمله يموت من جا أجله
ومن دنا من حثفه لم تُغن عنه حيلته
وما بقاه آخر قد غاب عنه أوله؟
والمرء لا يصحبه في القبر إلا عمله^(٢)

ومعاني الأبيات، في حد ذاتها، شديدة القرب إلى نفس الامام علي وفكره،
ولكن النسبة التي ارتبطت بها تجعل الباحث يستغرب أن يروي فيها للإمام حكم
هادئة أو تأملية حالم، إذ ليس ذلك مما يؤلف قوله ساعة الشئدة وأن الصبية،
وأيضاً فإن علياً كان يؤثر معاني غير التي نراها في البيتين الثاني والرابع، لو قد
كان الشعر حقاً لأبي السبطين في وفاة رسول الله ﷺ. واعتاب الظن أننا سوف
نظمتن إلى ما ذهبنا إليه حين نقرن الأبيات السابقة بقوله يرتقي النبي ﷺ:

(١) مقيم الأدب: ٤٨/١٤ . (٢) أدب الدنيا والدين ص ١٠٨ .

ألا طرَّقَ النَّاعِي بلبِلِ فراعني وأرتقي لما استقلُّ مُنادياً
فقلتُ له لما رأيتُ الذي أتى لغير رسول الله إن كنت ناعياً
فوالله لا أنساك أحد ما مشت

بي الميسُّ أو جاوزت في الأرض واديا
وكنت متى أهبط من الأرض تلعةً

أرى أترأ منه جديداً ومافيا^(١)

ولا شك أن فرقةً واضحاً بين هذه اللوعة الدائمة وبين حكمته المتقدمة
التي تصلح أن توجه إلى مفرور أو لامر أو جهول... لا أن يقال في تأييد النبي ﷺ
والأمر الرابع أن طائفة مما نسب إليه قد نصر الرواة على أنها لغيره، فن
ذلك البيتان اللذان رواهما له محسن الأديب العاملي في جملة ما سجت روايته له:

ومن البلاء وللبلاء علامة ألا يرى لك عن هواك تزوع
العبد عبيد النفس في شهواتها والحر يشبع مرّة، ويجوع^(٢)

فقد نسبنا في تاريخ ابن عساكر^(٣) وبهجة المجالس^(٤) إلى ابن المبارك، ومن
ذلك البيتان اللذان ذكرهما له سبط ابن الجوزي:

اغن عن المخلوق بالخالق تمن عن الكاذب والصادق
واسترزق الرحمن من فضله فليس غير الله من رازق^(٥)
نسبنا إلى ابنه الحسين^(٦)، وقد ذكرتهما في شعر الحكمة، وكذلك الأبيات

(١) أدب الأشراف ٥٩٢/٦ . وانظر البيتين الأخيرين في الفاضل ٦٤ .
(٢) أعيان الشيعة ١٩٤/٣ . (٣) عبدالله بن المبارك ج ٦ (معهد الخطلوطات)
(٤) ٣٠٦/٢ . وانظر ذيل الجواهر ٥٠٠/٢ . (٥) تذكرة خواص الامة ١٦٥ .
(٦) انظر شعر الدعوة الإسلامية في العصر الأموي ١٣٢ خلا عن تهذيب ابن عساكر ٢٢٤/٤
وابن كثير ٢٠٩/٨ .

التي تنسب إليه في الافتخار بالعلم والنظر (١) عزيت إلى أبي الأسود الدؤلي (٢) وإلى أبي حنيفة (٣) ، وإلى الامام الشافعي (٤) ، وإن كان هذا لا يثبت في أنها ليست له ، إذ قد تكون من شعره ونسبت إلى غيره .

والأمر الخامس : أن من الرواة القدماء من أشاروا إلى بعض الأشعار التي تنسب إليه - وهي في حقيقتها كثيرة - فإن هشام ينكر القصيدة التي رواها له ابن إسحاق في إجلال بني النضير وقتل كعب بن الأشرف والتي مطلعها :

عرفت ومن يمتدك يعرف وأيقنتُ حقاً ولم أصدف

ويبين أن الذي « قلما رجل من المسلمين غير علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ، فيما ذكر بعض أهل العلم بالشعر ، ولم أر أحداً منهم يعرفها لسلي رضوان الله عليه » (٥) . وكذلك يتقرب آياتاً بائنة ذكرها له ابن إسحاق في قتل عمرو بن عبد ود فيقول : « وأكثر أهل العلم بالشعر يشك فيها لسلي بن أبي طالب » (٦) . وقد أورد الحمصري الآيات ثم قال : « وبعض الرواة ينفها عن علي رضي الله عنه » (٧) . ونخرج من هذا إلى أن الإمام علي بن أبي طالب كان يقول الشعر حقاً ، إلا أنه تمجّل عليه موضوع كثير ، وهو موضوع يمكن للناقد أن يميزوه ويتفوه ويستخلصوا البقية النقية التي « يعلمان » إليها ، مما احتفظت به المصادر المتعمدة ، ورواها العلماء المحققون ، وآلفت سيرته وعصره .

ومن يرجع إلى تلك البقية مجدها دائرة حول الحكيم والجهاد والرتاء وما ينحو ذلك من الشعر الديني ، وأم تلك الموضوعات الحكيم ، إذ يوصي الإمام علي أن يحفظ كل امرئ سيره حتى لا يكون حديث المنطلين (٨) ، ويدعو إلى مواصلة الناس وأن يؤدّي أولو الفضل حقوق السائلين ، ويجذّرهم ، إن نجحوا ، بقاب الله ،

(١) انظر الآيات في تذكرة الخواص ١٦٨ ، وزهر الآداب ٤٠/١ .

(٢) انظر ديوانه ٢٥١ . (٣) انظر المناقب للرازي ١٩٥ .

(٤) انظر توالي التأسيس ٧٤ ، وطبقات الشافعية للسبكي ١٥٨/١ ، ومناقب الشافعي لليثمي ٦٩/٢ ، ومجموع الأدباء ٣٠٩/١٧ . (٥) سيرة ابن هشام ١٣٠/٢ .

(٦) المصدر السابق ١٤٢/٢ . (٧) زهر الآداب ٤٥/١ ، وانظر الآيات أيضاً في حاشية

البحري ٣٧ ، ودستور معالم الحكم للقضاي ١٨٦ . (٨) انظر تاريخ الخلفاء ١٨٤ .

وبذكّرتهم ، إذا سخّوا ، أنه يخلف بالحيّة أئقالمها (١) . وفي الحسن والمساوي يبتاع لأمير المؤمنين محضاًن على الصبر وما يكون له دائماً من محمود الأثر (٢) ، وفي تاريخ الخلفاء مقطوعة أخرى ، في هذا الغرض ، يقول في تضاعفها :

إذا اشتملت على اليأس القلوبُ وضاقَ بهتِها الصدورُ الرَّحيبُ

وأوطنت المسكارهَ واطمأنتُ وأرستُ في أماكنها الخُطوبُ

ولم يُرْ لانكشافِ الفشرِ وجهُ ولا أغنى بحيلته الأريبُ

أناك على قنوط منك غوثٌ يجيء به القريبُ المُستجيبُ

وكلُّ الحادثات إذا تاهتُ فوصولُ بها الفرجُ القريبُ (٣)

وما يمكن إلخافه بأدب الحكيم وسألاه في الصداقة الكريمة وما يبنى أن تقوم عليه من تضرر وقت الشدة وتفرج لهموم (٤) ، وإيضاً له آيات ينهى فيها عن سجة الجاهل ؛ لأش لا بد إن ماشاه من أن يمانه ويكافئه ، يقول :

فلا تصحبَ أبا الجليل وإياك وإيأاه

فكُم من جاهل أردى حليماً حين آخاه

يُقاسُ المرءُ بالمرء إذا ما هو ماشاه

وللقب على القلب دليلٌ حين يلقاه (٥)

ومن شعر الامام في الجهاد ما قاله حين تقدم إلى عمرو بن عبد ود ليبارزه بعد أن تراهي عمرو للمساولة :

لا تعجلنُ فقد أنا كجيب صوتيك غير عاجز

(١) انظر روضة القلاء ٢٣٤ . (٢) انظر الحسن والمساوي ١٣٢/٢ .

(٣) تاريخ الخلفاء ١٨٣ . (٤) انظر تاريخ الطبري ٦٣/٥ .

(٥) تاريخ الخلفاء ١٨٣ ، ودستور معالم الحكم للقضاي ٢٠٠ .

ذو نهيمة وبصيرة والصدق منجى كل فائر
إني لأرجو أن أفيء عليك نائمة الجنائر
من ضربة نجلاء بي حتى ذكرها عند المنزاهين^(١)
وفي مقطوعة أخرى بفتخر بما أبله في نصرة الرسول يوم أحد مبتغياً مرضاة
الله وجنتائه ، يقول فيها :

أفأطم هاك السيف غير ذمهم فلت برعديد ولا بلثيم
لمعري لقد جاهدت في نصر أحد ومرضاة رب بالعباد علم
أريد ثواب الله ، لا شيء غيره ورضوانه في جنة ونعيم^(٢)

وعلى هذا النحو يذكر مبارزته لمرحب اليهودي في يوم خيبر^(٣) ، وعقده لواء
صيفين للخصنين ابن المنذر^(٤) ، وبتحديته في بيتين آخرين عن عنت بعض
الفرسيين عن فؤادوا عليه ، واستمداده للمغالبة والموت على السواء :

تلكم قريش تمناني لتقتلي ولا وجدك ما برأ ولا ظفروا
فإن هلكت فرهن ذمتي لهم بذات روقين لا يفولها أثر^(٥)

وقد قال المازني في هذين البيتين : « لم يصح عندنا أن علي بن أبي طالب
عليه السلام تكلم من الشعر بشيء غير هذين البيتين »^(٦) إلا أن هذه النصوص
المروية عن المصادر المتقدمة تدفع إلى خلاف قوله .

وإلى جانب الحكيم وشعر الجهاد كان لأمير المؤمنين عدة مقطوعات في الزمان ،
وقد مر بنا نفيها على النبي الكريم ، ولما توفيت زوجته فاطمة بنت محمد عليها السلام جزع

(١) المشترك ٣٢/٣ . (٢) معجم الشعراء ١٣٠ ، وقد رواها مرسلة عن سعيد
ابن المسيب ، وانظر تاريخ الطبري ٥٣٣/٢ . (٣) معجم الشعراء ١٣٠ .
(٤) انظر جبهة اسباب الحرب لابن حزم ٣١٧ ، وزهر الآداب ٤٥/١ .
(٥) معجم الشعراء ١١١ ، ومعجم الآداب ١٣/١٤ . (٦) معجم الآداب ٤٣/١٤ .

عليها كثيراً ، وسور في شعره مصابه المضعف وألم فقدان الأحياء فقال :
لكل اجتماع من خليلين فرقة وكل الذي دون الفراق قليل
وإن افتقادي واحداً بعد واحد دليل على أن لا يدوم خليل^(١)

فقد شهد عهد الخلفاء الراشدين بعض فقهاء الصحابة الذين يقولون الشعر ،
غير أن نتاجهم فيه كان قليلاً جيداً ، وهو - مع قلة - لا يمكن أن نعتد
إليه الأبدى ما لم نزع من حوله اشواك الوضع والانتحال ، وذلك ما جعلني أهد
هذه الفترة تمهيداً أولياً للمرحلة التي بزغ فيها شعر الفقهاء ، وأقيم الدراسة على تلك
المرحلة الواضحة المسببة التي شهدت منذ مطلعها فقهاء كثيرين وهما للشعر وقتاً كافياً
وأهتماً خاصاً ، وخلف كل منها ديواناً كاملاً ، هما الزهراء بن بشير وأبو الأسود الدؤلي .

٢ - الشعراء الفقهاء في العصر الأموي :

ما إن طوي عهد الخلفاء الراشدين سنة اربعين للهجرة ، أي بقتل الإمام
علي ، حتى كانت الطلائع الأولى من أعلام الشعراء الفقهاء قد أخذوا يتوافدون إلى
ساحة الفن ، وبينما كان أوائلهم يدخلون على تردد واستحياء كان الذين يلونهم
يقصمون الميدان بقوة وثقة ، وكان كل منهم يحمل لواءين طالبين ، أحدهما لواء الفقه ،
والآخر لواء الشعر ، ويمثل الأوائل الحسن بن علي وعقبته بن عامر ، والحسين
السيدي ، وأولئك ليس لهم بين أيدينا إلا أبيات معدودات ، ويمثل التاليين النعمان
بن بشير ، وأبو الأسود الدؤلي .

ويبدو أن حياة الحسن بن علي بما اتصفت به من هدوء وقرار لم تقصر في
صدره جذوة الشعر ، ومعروف أنه منذ تنازل عن الخلافة لماوية أثر ان يعود إلى

(١) المشترك ١٦٣/٣ وزهر الآداب ٤٥٤١ ، وانظر اشعار الامام علي في العهد الفريسي
١٢٣/١ و ١٣٩/١ و ٣٧/٢ و ٣٥٦/٢ و ٤٢١/٢ و ٣٩٠/٣ و ٢٨٧/٥ ، وتاريخ الخلفاء
١٨٣ وأدب الدنيا والدين ١٤ ، ومعجم الشعراء ١٣٠ ، وإحياء علوم الدين ١٤/١ ، وتذكرة
خواص الامة ٣٥ و ١١٧ و ١٦٤ ، وما بعدها ، وقد لاحظت ان تذكرة خواص الامة لسيدي
ابن الجوزي ودستور معالم الحكم للقاضي بينويز ، شعراً موضوعاً فلم اذكر اليتيم منها
إلا لم تورد المصادر الموثوقة .

المدينة وبميش عيشة أمان ودعة حتى وفاته سنة خمسين للهجرة ، وكنت قد رويت له أياتاً ثلاثة في الحكمة أما عمة بن عامر الجبلي وهو الصحابي القاري النقبه الذي قولى مصرأ لمهد مداوية ثم ندبه لفتح جزيرة رودس وتوفي سنة ثمان وخمسين^(١) فمع كثرة ما أشارت المصادر إلى أنه كان يقول الشعر^(٢) لم أعثر له إلا على شطر بيت رواه له ابن فنية وذكر أنه كان يصبح بالسواد ويقول :

نُفَيْرُ أَعْلَاهَا وَتَأْبَى أَسْوَلُهَا^(٣)

ومن التريب أن هذا الشطر لم يسل خالماً له ، فقد نازحه فيه الحسن بن علي الذي أورد ابن رشيقي أنه هو القائل ، وقد خرج على أصحابه محتضباً ، رواه المبرد :

نُسُودٌ أَعْلَاهَا وَتَأْبَى أَسْوَلُهَا

قلت الذي يسود منها هو الأصل^(٤)

وأما شهيد كربلاء الذي سقط سنة إحدى وستين فقدم بنا بيتاه في زوجا الرباب وابنته .سكينة ، وبيتاه اللذان شارك والده في نسبتهما ، ومما ذكر له في المصادر أيضاً رجز حماسي مشطور يُؤْتَمِرُ فيه الموت على ركوب المار^(٥) . وروى المسودي أن الحسين طولب البيعة ليزيد بالمدينة فسام التأخير وخرج بنهائي بين مواليه ويقول :

لَا ذَهَرْتُ السَّوَامَ فِي فَلَقِ الصَّبْحِ

مغيراً ولا دعيت يزيدا

يوم أعطي مخافة الموت ضيماً والمنايا ترصدني أن أصيدا^(٦)

والبيتان - إن ثبتا له - أيتدا ما كان يتصف به من بسالة وإباء ، مما بدأ

- (١) الاماية ٢٥١/٤ . ٢) المصدر السابق وصفت ٢٥٠/٤ ، وتاريخ الاسلام ٣٠٦/٢
 (٣) العارف ٢٢٩ . ٤) الصدفة ١٤/١ .
 (٥) انظر شعر الدعوة الاسلامية في العصر الاموي ٨١ . ٦) مروج الذهب ٨٦/٢

في صموده أمام جيش ابن زياد ، غير أن دعوته نفسه « يزيد » يأتي ظلاً من الشك حولها ، ومن الحق أن الناظر فيما يرمي إلى سبط الرسول لا بد أن يستغرب انتساب بعض الأشعار إليه ، ذلك أن فيها ما كان ينشده إنشاداً^(١) ، وفيها ما تنقطع فيه همزة الوصل في نحو « الاشتغال »^(٢) ، وفيها ما يتألف من المعر ويتهمة بالندر^(٣) . فأما الذي كان ينشده فهو في الغالب يرويه عن غيره رواية ، وأما المضطرب الذي يقطع همزة الوصل فلم يكن يعرفه ذلك المعر ، وأما ما يندم « الدهر فلا تظن الحسين ينطق به ويخالف ما بثته جده عليه السلام من الحديث القدسي : « قال الله تبارك وتعالى : « يؤذي ابن آدم يسب الدهر ، وأنا الدهر ، بيدي الأمر اقلب الليل والنهار »^(٤) .

وإذا تركنا الذين طرّفوا أبواب الشعر لهذه الفترة على استحياء وجدنا شاهرين كبيرين يدومي فتاجها في كل أنظار الساحة الفنية ، هما النعمان بن بشير الذي اغتيل سنة خمس وستين ، وأبو الأسود الدؤلي الذي توفي سنة تسع وستين ، وسوف استعرض الحديث عنها مع أعلام النمراد الفقهاء في العصر الاموي . وكان يتاصر النعمان والدؤلي الفقيه الغد عبدالله بن عباس المتوفى سنة ثمان وستين للهجرة^(٥) ، وقيل سنة تسع وستين^(٦) ، وكنت ذكرت له في الفخر اربعة آيات ، وقد روى له الحميري هذه المقطوعة في إكرام الخيل :

أَجَبُوا الْخَيْلَ وَاصْطَبَرُوا عَلَيْهَا فَانَ الْمَزَّ فِيهَا وَالْجَلَالَا

إِذَا مَا الْخَيْلَ ضَيَّعَا أَنْاسَ رَبَطْنَاهَا فَأَشْرَكَتِ الْعِيَالَا

تَقَامَهَا الْمَيْشَةَ كُلَّ يَوْمٍ وَنَكَسُوهَا الْبَرِاقِعَ وَالْجَلَالَا^(٧)

- (١) انظر شعر الدعوة الاسلامية في العصر الاموي ص ٢٨٤ .
 (٢) المصدر السابق ٢٢٨ . ٣) عمه ٢٢٨ .
 (٤) التجريد ١١١/٢ ، وانظر آياتا اخري للحسين في شعر الدعوة الاسلامية في العصر الاموي ٦٠ ، و ٢٢٧ . ٥) و ٦) مروج الذهب ١١٥٠٢ .
 (٧) حياة الحيوان ٣٧٩/١ ، وذكر انه نقله عن الشهيد لابن عبدالبر .

ومن العروف كيف أصيب هذا الصحابي الجليل بحبيته ، وزاه يذكر ذلك في بيتين من شعره بقول فيهما :

إِنْ يَأْخُذُ اللَّهُ مِنْ عَيْنِي نَوْهَهَا فِي لِسَانِي وَقَلْبِي مِنْهَا نُورُ
قَلْبِي ذِكْرِي وَعَقْلِي غَيْرُ مُدْخَلٍ وَفِي فِي صَارِمٍ كَالسَيْفِ مَأْتُورٍ (١)

وكان يلحق في تلك الفترة اسم القاضي شريح بن الحارث الكندي ، وهو تابعي (٢) ، إلا أنه ادرك الجماهيلية (٣) ، وكان يقيم في أول أمره في اليمن (٤) ، حتى إذا كان عهد الصديق عاودها إلى المدينة (٥) ، حيث التقى بكبار الصحابة من أمثال عمر وعلي (٦) فأخذ عنهم ، ثم قصد الكوفة ، وكان فيها الفقيه الصحابي عبدالله بن مسعود ، فنزل من مبيته الفيض (٧) ، وما زال شريح عاكفاً على الدراسات الفقهية حتى حدقها واستوعبها (٨) .

ويروى أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أخذ من رجل فرساً على سؤم ، فحمل عليه شخصاً ، فمطب الفرس ، فقال عمر : اجعل بني وبينك من يقضي ، فاختر شريحاً ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أخذته صحيحاً سليماً على سؤم فليك أن زده كما أخذته . فأعجبه ما قال ، وبث به قاضياً على الكوفة (٩) ، فأضى في هذا العمل سحابة عمره ، وكانت تنضم إلى قضائه أحياناً البصرة ، ولذلك لقبه قاضي الصريين (١٠) .

وتؤكد لنا المصادر أن شريحاً قد صدق ظن الفاروق به فكان قاضياً عاماً زهاً ، يحكم بالحق ولو على أحب الناس إليه (١١) ، وتجبرنا تلك المصادر أن أبا نبي

١ (مروج الذهب ١١٥/٢ ، والفرد القريد ٢٨٧/٥ ، ونكت الهيمان ٧١ ، والفتوح الرومية ١٨٠ ، وانظر هامش الشعر والشعراء (بتحقيق احمد محمد شاكر) ٨٥٤/٢ اذ يذكر الحنف انساب البتتين الى غير ابن عباس أيضاً .

٢ (٢) و (٣) وفيات الأعيان ١٦٧/٢ . (٤) و (٥) سير اعلام النبلاء مجلد ٤ / ١٠٧/٢ . (٦) و (٧) تذكرة الحفاظ ٥١ / ١ . (٨) شذرات الذهب ٨٥/١ ، وسير اعلام النبلاء ٢١٧/١٧ . (٩) انظر الأغانط (الهيئة المصرية) ٢١٧/١٧ . (١٠) سير اعلام النبلاء ١٥٧/٢/٤ . (١١) انظر شذرات الذهب ٨٥/١ ، ووفيات ١٦٨/٢ ، وتاريخ الخلفاء ١٨٤ .

شريحاً كان رقيق الاحساس حاد التأثر حتى كان الذي حفزه إلى الخروج من اليمن ان أمه تزوجت بعد أبيه (١) ، وكان إذا سئل عن انت ؟ يقول : ومن أئمت الله عليه بالإسلام ، عديت كندة (٢) ، فيجرس في دقة أن ينتسب إلى الاسلام ، لا إلى القبيلة ، وما يدل على رهافة إحساسه أيضاً تأثره الشديد لانشقاق الصف الاسلامي بين عبدالله بن الزبير وبني أمية ، وهو تأثر جملة يطلب من الحاجج أن يقبله من القضاء (٣) الذي أثنى فيه من عمره خمسة وسبعين عاماً (٤) ، وما إذا استجاب إلى رغبته حتى انكفاً ولا يُخبر ولا يستخبر (٥) عن امر الفتنة شيئاً حتى مات . وقد اختلف الرواة في سنة وفاته ، فذكروا (٦) أنها كانت سنة ست وسبعين أو ثمان وسبعين أو تسع وسبعين أو ثمانين أو اثنتين وثمانين أو سبع وثمانين ، إلا أن استقالته عقب الفتنة التي نشبت بين الأمويين وابن الزبير - ومعلوم أنها انتهت بمقتله سنة ثلاث وسبعين للهجرة - تجعل الباحث يستبعد الروايات التي تؤخر وفاته إلى ما بعد سنة ثمانين ، وقد يؤيد ذلك أنه مات بعد سنة واحدة من تركه منصبه (٧) وأن كثرة الرواة ذكروا وفاته سنة ثمان وسبعين (٨) ، وبأن في مقدمة هؤلاء الاسام البخاري (٩) ، وهي السنة التي يمكن الاطمئنان إلى ان شريحاً لم ينداء ربه فيها ، بيد أن طوى ما يزيد على القرن (١٠) . وقد رويت لأبي أمية عدة مقطوعات متفرقات خلال البحث ، وما احتفظت به المصادر من شعره أيضاً قوله لما بعت مملوياً حبيب ابن مسلمة النهري لنعرة عثمان ولكن لم يدركه حتى قتل :

أَلَا كَلُّ مَنْ يُدْعَى حَبِيباً وَلَوْ بَدَتْ

مُرُوثُهُ يَفْنِي حَبِيبَ بَنِي فِهْرٍ

هَمَامٌ يَقُودُ الْخَيْلَ حَتَّى يُزِيرَهَا حِيَاضَ الْمَنَابِإِ لَا تَلِيْتُ عَلَى وَتَرٍ

- ١ (٢) و (٣) اخبار القضاة ١٩٩/٢ . (٤) تهذيب الاسماء واللقب القسم الاول ٢٤٤/١ . (٥) المعارف ٤٣٣ ، ووفيات ١٦٧/٢ . (٦) حلية ١٣٣/٤ ، وطبقات ابن سعد ١٤٠/٧ . (٧) انظر وفيات ١٦٩/٢ ، اذ يذكر الحلاف في سنة وفاته . (٨) تذكرة الحفاظ ٥١/١ . (٩) انظر الصدر السابق وصفته ، واخبار القضاة ١٩٩/٢ ، وطبقات ابن سعد ١٤٥/٦ . (١٠) انظر تهذيب الاسماء واللقب ٢٤٤/١ . (١١) الصدر السابق وصفته ، والمعارف ٤٣٤

نصو بن واستصمدن حتى كأنما

يَطْأَنَ بِرَضْرَاضِ الْحَصَى جاحم الجمر^(١)

ومن دون شك لا يمثل ما في أيدنا من أشعاره كل نتاجه ، وأغلب الظن أن كثيراً منه قد ضاع في جملة ما ضاع من زائنا ، وإذا كان الرواة لم يشيروا إلى هذا الضياع فحسبته شهادتهم انه ضاع عن حسن^(٢) .
ومن كان يقول الشعر في هذه الفترة نصر بن عاصم التوفي بالبصرة سنة تسع وثمانين^(٣) ، وهو من فقهاء التابعين^(٤) ، ومن أوائل واضعي النحو^(٥) ، وكان في بداية أمره يرى رأي الخوارج ثم ترك ذلك وقال في تركه :

فَارَقْتُ نَجْدَةَ وَالَّذِينَ تَرَقُّوا وَإِنَّ الزَّيْرَ وَشَيْعَةَ الْكُرَّانِي

وَهَوَى النَّجَارِيِّينَ قَدْ فَارَقْتُهُ وَعَطِيَّةَ الْمُتَجِرِ الْمُرْتَابِ^(٦)

ومن روي لهم أبيات ممدودات الفقيه المراقي إبراهيم بن يزيد النخعي التوفي سنة ست وتسعين^(٧) ، وكان ينصر فقه الحديث ويكره الرأي والقياس^(٨) ، وقد أثبت له أبياته في الصداقة والصديق عند الحديث عن العتاب .

وكان يعاصر النخعي من أهل المدينة عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وسوف أقف عنده مع الأعلام ، وكان فيمن تفقسه على ابن عتبة من يقول الشعر ، وبأبي في مقدمة هؤلاء خلفاء الراشدين أبو حفص عمر بن عبد العزيز ، ومعروف أنه ولد بجبلوان من مصر ، في أثناء تولي أبيه عبد العزيز بن مروان لها ، وكانت ولادته سنة إحدى وستين ، أو ثلاث وستين للهجرة^(٩) ، وقد استظهر آيات الذكر الحكيم منذ نومة أظفاره^(١٠) ، ولم يلبث أبوه أن بنت به إلى المدينة فتفقعه حتى بلغ مرتبة الاجتهاد^(١١) ، ولما ولي الوليد بن عبد الملك الخلافة أمّره على المدينة من سنة

(١) أخبار القضاة ٢/٢٠٤ ، وكتاب نسب قرش ٤٤٧ .

(٢) وفيات ١٦٧/٢ . (٣) و (٤) و (٥) و (٦) معجم الأديب ٢٢٤/١٩ .

(٧) سير أعلام النبلاء ٢/٤٠٤ . (٨) حلية الأولياء ٢٢٢٠٤ .

(٩) و (١٠) تاريخ الخلفاء ٢٢٨ . (١١) شذرات ١١٩/١ .

ست وثمانين إلى سنة ثلاث وتسعين^(١) ، ثم قدم الشام واقترن بمطالمة بنت عبد الملك حتى إذا توي سليمان بوبع بالخلافة في صفر سنة تسع وتسعين ، فمكث فيها سنتين وخمسة أشهر مملأ فيها الأرض عدلاً ، ورد المظالم ، وسن السن الحسنة^(٢) . وقد كان عمر أمته في زهده وتقواه . وروى أنه كان يقول : « أيها الناس ، أصلحوا أئرامكم تصلح علاتيكم ، واعملوا لآخرتكم تكفتموا دنياكم ، واعلموا أن رجلاً ليس بينه وبين آدم أب حي لسريق في الموت »^(٣) ، ويقول : « من عد كلامه من عمله قل كلامه »^(٤) ويقول أيضاً « إذا سمعت كلمة من امرئ مسلم فلا تحملها على شيء من الشر ما وجدت لها محتملاً من الخير »^(٥) . وتوفي بدير سيمعان من أعمال حمص في رجب سنة إحدى ومائة^(٦) .

وقد احتفظت المصادر للخليفة الصادل بمقطوعات كثيرة منها ما كان يؤلفه بنفسه ، ومنها ما كان ينشده لغيره اعتباراً وتثلاً ، مما أدى ببعض الرواة أن يخلطوا بعض ما تمثله فيها أئمه ، ولكن أصحاب النقد والتحقيق تمكنوا الميئز بين المجهوعين ونصوا على ما كان عمر يتمثل به تمثلاً ، فمن ذلك أبياته : « يرى مُسْتَكْبِئاً وَهُوَ لِلنُّهْرِ مَاقِتٌ »^(٧) ومنها « لما تزودت بما كان يجهمه »^(٨) ، ومنها : « ألم تر أن الموت أدرك من »^(٩) ، ومنها : « نهارك يامفروز سهو وعفة »^(١٠) ، ومنها : « أبقتلأن أنت اليوم أم أنت حلم »^(١١) ، ومنها : « من كان حين نصيب الشمس جبهة »^(١٢) .

وإذا تركنا ما كان ينشده إنشاداً وجدنا الرواة يشيرون له أبياتاً أخرى تدور حول النفس وأخذها بأسباب الترية والشعور بالمسؤولية والحساب ، فهو يجذر من إتباع النفس هواها ، دون أن تمتدح ولا بشيب ولا كهولة فيقول :

(١) تاريخ الخلفاء ٢٢٩ . (٢) تاريخ الخلفاء ٢٣١ . (٣) هـ ٢٣٨ .

(٤) هـ ٢٤٣ . (٥) هـ ٢٣٩ . (٦) هـ ٢٤٦ .

(٧) الحلية ٣١٨/٥ . (٨) هـ ٣١٩/٥ . (٩) هـ ٣١٩/٥ .

(١٠) هـ ٣١٩/٥ و ٣٦٣/٥ ، وأدب الدنيا والدين ١-٣ .

(١١) حلية ٣١٩/٥ وانظر سيرة عمر لابن الجوزي ٢٢٥ هـ نس على تمثله بها .

(١٢) سيرة عمر بن عبد العزيز ٢٢٦ .

إنه الفؤاد عن العبا وعن انقياد للهوى
 فلمر ربك إن في شيب المفارق والجلي
 لك واعظاً لو كنت تممظ تماظ ذوي النهى
 حتى متى لا ترعوي وإلى متى ، وإلى متى ؟
 من بعد أن سميت كهلًا واستلّيت اسم الفتى
 بلي الشباب وأنت إن عمّرت رهن للبللى
 وصكى بذلك زاجراً للمرء عن غي كفى (١)

ويتولى عمر الخلافة فإذا هو يشمر بسبب المسؤولية التي نعت به فيقول :
 قد جاء شغل شاغل وعدلت عن طرق السلامة
 ذهب الفراغ فلا فراغ لنا إلى يوم القيامة (٢)
 وعلى الرغم من انشغاله بأمر الخلافة والقيام بأعمالها ، فإنه لم يكن يكف
 عن ذكرى الموت الورد الذي لا يعم منه رئاسة ولا خلافة ، بل يأتي على كل
 نبي إلا وجه الملك البان :

أنا ميتٌ وعزٌّ من لا يموتُ قد تيقنتُ أنني ساموتُ
 ليس ملك يزيله الموت ملكاً إنما الملك ملكٌ من لا يموتُ (٣)
 ويستغرب ألا يتفكر الناس في مصيرهم ، بينما الموت يندو على أشياعهم من
 بينهم وروح :

ومن الناس من يمشى شقيماً جيفة الليل غافل اليقظة

(١) المدة ١٧/١ ، وسيرة عمر ٢٣١ ، وتاريخ الخلفاء ٢٤٤ ، والجلي : الحمار مقدم الرأس
 دون الصلح . (٢) سيرة عمر ٢٣٠ ، والبداية والنهاية ١٦٨/١ .
 (٣) حلية ٢٦٤/٥ ، والبداية والنهاية ٢٠٦/١ .

فإذا كان ذا حياء ودين راقب الله واتقى الحنظة
 إنما الناس ظاعن ومقيم فالذي سار للمقيم حنظة (١)
 وعن كان يقول الشعر لهذه الفترة طمر بن سرحيل (٢) الشبي وهو قبيح
 أبي (٣) ينسب إلى أسول حنظرية ، وعداده في حنندان (٤) ، وروى أنه كان
 نجيلاً ضيلاً ، وأنه كان إذا سئل عن ذلك يقول : « زومت في الرحم ، ذلك أنه
 ولد هو وأخ له في بطن واحد » (٥) ، على أن طمرًا كان مضرب القتل في الذكاة
 وقوة الحنظة وغزارة العلم ، وقد كان يقول : « ما أفا بشيء من العلم أقل رواية »
 من الشعر ، ولو شئت أن أشهد شهرًا ، كل يوم ، لا أعيد قصيدة ، لفتنت (٦)
 وهو يمد من كبار الفقهاء لهدى ، بل يمدّه الزهري رابع ثلاثة م أحم أهل
 زمانهم (٧) ، ويسلك في فقهاء الحديث إذ كان يكره الرأي والقياس (٨) ، وأصغر
 الروايات على أنه توفي سنة أربع ومائة (٩) ، والذي بقي من أشعار أبي عمرو يسير جداً ،
 وما روي له قوله عندما سئل عن عمره :

نفسى تشكى إلى الموت مزحفة

وقد حنكك سبها بعد صبيها

إن تحذني أملاً يا نفس كاذبة

إن الثلاث يوقين الثمانين (١٠)

وروى وكيع عن سعد بن بويه الكاتب أنه سمعه يقول :

(١) سيرة عمر ٢٣٠ ، وحلية ٣٢٠/٥ ، وقد مرت بنا خلال البحث مقطوعات أخرى لسر
 وانظر تاريخ الإسلام ١٦٨/٤ ، وعيون التواريخ حوادث ١٠١ ، وشعر الدعوة الإسلامية في
 العصر الأموي ص ٣٥٥ .
 (٢) وفي رواية أنه اسم أبيه عبدالله ، انظر شرح المقامات المرورية ٢٤٥/٢ .
 (٣) و (٤) وفيات ٢٢٧/٢ ، (٥) العارف ٤٥٠ ، (٦) أخبار القضاة ٤٢٠/٢ .
 (٧) وفيات ٢٢٧/٢ ، (٨) الحلية ٣١٩/٤ ، (٩) أخبار القضاة ٤٢٧/٢ ،
 دليل غير ذلك انظر ابن سعد ٢٥٥/٦ ، وفيات ٢٢٨/٢ ، والطارف ٤٥١ .
 (١٠) طبقات ابن سعد ٢٥٥/٦ ، وتهذيب ابن سائر ١٥٥/٧ ، وحلية ٣٢٤/٤ .

أنت الغني لكل الغني لو كنت تصدق ما تقول
لا خير في كذب الجوا د وحبذا صدق البخيل^(١)

وعن نسب إليه بعض الآيات في هذه الفترة الحسن بن يسار البصري التوفي سنة عشر ومائة (٢)، واعظ البصرة وفقهها المشهور، وقد مر له في ظاهرة النظم أربعة آيات. ومنهم أيضاً عون بن عبدالله بن عتبة التوفي سنة خمس مائة ومائة، وقد أخذ عن أبيه عبدالله بن عتبة وشقيقه عبيدالله بن عبدالله وابن عباس وسعيد بن المسيب والسيدة عائشة وأبي هريرة وعبدالله بن عمرو (٣)، فكان من آداب أهل المدينة وأفقيهم (٤)، وكان يقول بالإرجاء، ثم رجع عنه وقال:

فأول ما أفارق غير شكٍ أفارق ما يقول المرجثونا
وقالوا مؤمن من أهل جور وليس المؤمنون بجائرنا
وقالوا مؤمن دمه حلال وقد حرمت دماء المؤمنين^(٥)

ويبدو أن الدعوة إلى الإرجاء كانت مستحكة قوية لذلك العهد، إذ نجد شاعراً آخر يستن آراءها من دون أن يرجع عنها هو محارب بن دثار السدوسي التوفي سنة ست عشرة ومائة (٦)، وهو فقيه كوفي تابعي سمع ابن عمر وابن مسعود وجابر بن عبدالله من الصحابة (٧)، ونولى قضاء الكوفة لخالد بن عبدالله القسري (٨) ويعد محارب من قدماء المرجئة الذين كانوا يشجبون الحكم على علي وعثمان ولا يشهدون فيها بشيء (٩)، وزاد بوضع نظريته في الإرجاء في شعره، فهو لا يرى بأساً في تأخير الإمام علي في توليه الخلافة إلى ما بعد سابقه، أبي بكر وعمر

(١) أخبار القضاة ٢/٢٢٢. (٢) المعارف ٤٤١.

(٣) تاريخ الإسلام ١/٢٧٧، والتاريخ الكبير للبخاري ١٣/٤.

(٤) تاريخ الإسلام ٤/٢٨٨. (٥) الأغانى دار الثقافة ٩/١٣٥، والمعارف ٢٥٠.

(٦) تهذيب التهذيب ١٠/٥٠. (٧) تهذيب الأسماء واللغات ٢/٨٤.

(٨) شذرات ١/١٥٢. (٩) تهذيب التهذيب ١٠/٥١، وطبقات ابن سعد ٦/٣٠٧.

وعثمان، ويقص اختلاف الناس في عثمان - رضي الله عنه - ثم يصدر في موقفه من فكرة الإرجاء، وأن مرد الأمر إلى الإيمان واليقيدة، وينبأ من الحكم على أصحاب غائبة منه لا يعلم حقيقتها ولا أسرارها:

وإرجائي أبا حسن صواب على المسمرين برماً أو شقيماً
وعثمان فقال الناس فيه: فقالت فرقة قولاً بذيتنا
وقال الآخرون إمام عدل وقد قتلوه مظلوماً بريئاً
وليس علي في الإرجاء بأس ولا نقص ولست أخاف شيئاً
إذا أيقنت أن الله حق وأن محمداً جانا نبياً
وأن الرسل قد بشوا بحق وأن الله كان لهم ولياً
إذا حشر القرآن حشرت معه وأرجي بدم أمراً خفياً
وما علمي بما فعلت رجال مضوا قبلي وكنت لهم عمياً^(١)

ومن احتفظت لهم المصادر ببعض الآيات زيد بن علي زين العابدين الذي قر على هشام بن عبدالملك في الكوفة فقتله يوسف بن عمر سنة اثنين وعشرين ومائة (٢) وهو مؤسس المذهب الزيدي في الفقه، وكان هشام لما أحسن بنواياه في الخروج طلبه ولامه وقرعه فخرج زيد من عنده وقال:

شرده الخوف وأزرى به كذاك من يكره حرّ الجِلاد
محتفي الرجلين يشكو الوجي قرعه أطراف صرور حِداد
قد كان في الموت له راحة والموت حتم في رقاب المباد^(٣)

ومنهم ابن شهاب الزهري محمد بن مسلم التوفي سنة أربع وعشرين ومائة،

(١) أخبار القضاة ٣/٢٩، وانظر الأغانى (دار الكتب) ٧/٢٤٨. (٢) تاريخ الوصل ٤٤.

(٣) المقدم القريني ٤/٤٨٣، و ٥/٨٩، والرو: حجارة يش رفاق.

وكان مقرها إلى عبد الملك بن مروان وابنه هشام وزيد ، وهو القائل لبداقة بن عبد الملك بن مروان :

أقول لمبدأ الله لما لقينته يسير بأعلى الرقتين مشرقاً
تبغ خبايا الأرض وأرجح ملكها يوماً أن تجاب وترزقا (١)

وقد نهت أواخر هذه الآونة أشمار ابن أذينة المدني ، وسابن بن عبداقة البربري وسوف أدرسها مع الاعلام :

٣ - اعلام الشعراء الفقهاء في العصر الأموي :

أ - النعمان بن بشير :

هو أبو عبداقة (٢) النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري ، الخزرجي ، وأبوه بشير هو أول من بايع أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، من الصحابة الأنصار يوم السقيفة ، وكان قد شهد بيعة القبة وبدراً واحداً والخندق ثم لزم جيش خالد ابن الوليد فاستشهد يوم عين التمر (٣) ، وأمه عمرة بنت ربيعة شقيقة عبداقة (٤) ، وكانت وضعت في المدينة ، للسنة الثانية للهجرة (٥) ، وما إن ترمح حتى صار يروي الحديث عن النبي ﷺ ، ولم يلبث المصطفى أن انتقل إلى الرقيق الأعلى فأخذ ينهل أحاديثه عن أئمة الصحابة من أمثال خاله عبداقة بن ربيعة وعمر وعائشة ، رضي الله عنهم (٦) ، وبلغ ما روي له مائة وأربعة عشر حديثاً (٧) ، نقلها عنه ابنه سعد وبشير والشعبي وسماك بن حرب ومحمد بن عبدالرحمن الزهري وأبو سلام مطهر وأبو قلابة ، وعروة وخيشمة بن عبدالرحمن وغيرهم (٨) .

وقد كان النعمان ممن نازروا لقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه ، تأثراً بالنساء ،

(١) مجمع الشعراء ٣٤٥ . (٢) انظر كنيته في تهذيب الأسماء واللغات ١٢٩/٢ ، والاسمى ترجمة ٨٧٢٢ ، والمعارف ٢٩٤ .
(٣) الأغانى (التتافة) ٤/١٦ . (٤) أسد الغابة ٢٢/٥ .
(٥) سير اعلام النبلاء ١/٤٠٠ . (٦) الاسمى ت ٨٧٢٢ .
(٧) تهذيب الأسماء واللغات ١٢٩/٢ ، وانظر بعضاً منها في كتاب الجهاد ٤٢ ، والجريريد ١٢٨/١ و ١٤٧/٢ . (٨) انظر تلافيفه في أسد الغابة ٢٢/٥ ، وسير اعلام النبلاء ١/٤٠٠ ، والاسمى ت ٨٧٢٢ .

وزى قائلة - امرأة عثمان - توجهه بقميص الخليفة الشهيد إلى معاوية في الشام (١) ، ومقد ذلك الحين تمنقذ بينه وبين مؤسس الخلافة السيفانية موالاة قوية ، ويصبح من كبار أعوانه ، وخلف معاوية ابنه زيد ، وكان النعمان حينئذ يتولى عاصمة أبي الصبطين فأبقاه عليها فترة ، ثم عزله . . ولم يلبث ان أمره على حصن مرة ثانية (٢) .

وعلى الرغم من مناصرة النعمان لمعاوية ، وخوضه معه حرب صفين (٣) ، فإنه لم يكن يتردد أن يقول أمامه ما يراه من الحق ، فهو بأبي ان يتبدل شتمه حاجب معاوية بلقب الأنصار أولاد عمرو بن طامر أو الأوس والخزرج ، وكان معاوية أمره بهذا مستجيباً لرأي عمرو بن الناس (٤) ، وهو يستنكر على مروان بن الحكم أن يتخذ الحد في عبدالرحمن بن حسان ، دون أن يتفقه بأخيه عبدالرحمن بن الحكم ، عندما حج الحججه بينهما واستفحش ، وكان ابن حسان كتب إلى النعمان بمطلبه ، فدخول على معاوية بمطالبة :

يا بن أبي سفيان ما مثلنا جارٍ عليه ملكٍ أو أميرٍ
اذكر بنا مقدم أفراسنا بالحنو إذ أنت إلينا فقير (٥)

ويذكره بمكرمة أبيه بشير بن سعد يوم تقدم الأنصار لمبايعة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وبما أبلوه يوم بدر ، وطلب إليه إعطاء ابن حسان حقه لتصح صدور الثاثرين لظلمته ، ويلوح له بقوة الأزدي وإبائهم الضيم (٦) ، ويستجيب له معاوية ، فيكتب إلى مروان ، ويؤزم عليه ، أن يضرب أخاه مائة ، فضربه خمسين ، وبعت إلى ابن حسان بحكوة ، وسأله أن ينفو عن خمسين ، ففعل ، وقال لأهل المدينة : إنما ضربني "حد" الحر مائة وضربه حد" السيد خمسين ، فشاعت الكلمة حتى بلغت ابن الحكم ، فجاء إلى أخيه فأخبره . وقال : لا حاجة لي فيما عفا عنه ابن حسان ، فيمت إليه مروان : لا حاجة لنا فيما تركت فإعلم فاقصم من صاحبك ،

(١) المحرر ٢٩٤ . (٢) انظر أعماله التي تولاها : سير اعلام النبلاء ٢/١٠٠ .
وأنساب الاشراف ٣٦٤/١ . (٣) أنساب الاشراف ٣٦٤/١ .
(٤) انظر الأغانى (التتافة) ١٣/١٦ . (٥) شعر النعمان ١٤٤ .
(٦) المصدر السابق ١٤٤ وما بعدها .

لحضر فضربه مروان خمسين أخرى (١).

ويمكن القول إن نازة النعمان لم تلتب مرة كما التبت حين هجا الأخطل الأنصار بقصيدته التي يقول فيها:

ذهبت قريش بالمسكارم كلها واللؤم تحت عمائم الأنصار (٢)

ويروي أن النعمان عندما سمها دخل على معاوية وحرر عمامة عن رأسه ، وقال : يا أمير المؤمنين أرى لؤماً ؟ قال : لا ، بل أرى كرماً وخيراً ؟ فما ذلك ؟ قال : زعم الأخطل أن اللؤم تحت عمائم الأنصار ، ثم أنشد قصيدته التي يطلب فيها القصاص من الأخطل ، أو عبد الأرقام - كما يسميه - ويبين قبح قصاصه وهو قطع لسانه الذي انتهى في الأنصار الدنية ، ويبلغ النضب بالنعمان أن يهدد معاوية - إن زدد في عقابه - بقوتهم الضخمة ، فيقول :

معاوي لا تُطمنا الحق تعرف لحى الأزد مشدوداً عليها العمائم
أيشتمنا عبد الأرقام ضلة وماذا الذي تجدي عليك الأرقام
فإلي نأر غير قطع لسانه فدونك من برضيه عنك الدراهم
وارع رويداً لا تسمنا دينة لملك في غيب الحوادث نادم
متى تلق منا عصبية خزرجية أو الأوس يوماً تحترمك المخارم
وتلقك خيل كلقطاً مسبطيرة شاطيطاً أرسل عليها الشكائم (٣)

ويصور صنعة هذا الجيش وما يكون له من هول وطول ، ويلفت معاوية إلى أنه سوف يبا أن يرأب الصدع إذا انفتق ، ويدعوه إلى المسارعة في القصاص ،

(١) الأغاني (الثقافة) ١٠/١٦ و ١١ .

(٢) انظر البيت والحادثة في المصدر السابق ٨/١٦ و ٩ .

(٣) ديوانه ص ١٥٠ وما بعدها ، ومشدوداً عليها العمائم : مستعدة القتال ، والأرقام : أحياء من نضب ، وضلة : ضلالاً ، والغب : العاقبة ، وتحترم : تهلك ، والمخارم : الطرق في الجبال ، ومببطيرة : طويقة سريعة ، وشاطيط ، وأرسال : متفرقة متناوبة .

وكأما بتخييل النعمان منه بتبطوطاً ، فيكرر في تهديده والتلويح بقوى الأنصار ، وما أنبتوه من جدارة حربية يوم بدر ، وما اتجهوه من كراهية المرأة ، ويؤكد له طلبته ويبدئ التهاون فيها شتماً صراحاً ، فيقول :

فما إن رمى رام فأوهى صفاتنا ولا ضامنا يوماً من الدهر ضائم
فلا تشتمنا يان حرب فأوحنا ترقى إلى تلك الأمور الأشائم (١)

ويذكره بفضل بني هاشم على قومه ، وكيف بث الله منهم خاتم النبيين (٢) ، وقد تأثر معاوية بالأبيات نأزراً شديداً ، إلا أنه تحمل كل ما فيها ، وآثر لشعرته دوام الاتصال ، وأمر بدفع الأخطل إلى النعمان ليقطع لسانه ، فاستجار يزيد بن معاوية ، فتمنه وأرضوا النعمان حتى كف عنه (٣) .

وتشع يزيد للأخطل لا يعني أنه لم يكن يقدم النعمان ويؤزره ، فقد جرى في ذلك على سنن أبيه ، ورأينا كيف ولاه حمص بعد الكوفة ، ثم مضى يزيد وخلفه ابنه معاوية الثاني ، ولم يلبث أن توفي بعده بقليل تاركاً ائتلافه شورى بين المسلمين ، وكانت دعوة عبد الله بن الزبير أشد في أوج نفوذها ، وكان الذي يلمح في الاتفاق أن ابن ذات النطاقين هو خليفة الله لا محالة ، وقد رعب المسلمين فيه ما كان عليه من صلاح وهداية (٤) ، فبايسته كثرة الأقطار الفرقة والزبية ، وبايسته النعمان بن بشير أمير حمص ، وفجأة ينتصر مروان بن الحكم للأموية في الشام (٥) ، ويقضي على شيمه ابن الزبير في مرج راحط ، وينقب من نجا منهم فراراً ، ويؤليب عليهم ، وكان من هؤلاء النعمان ، وقد أدركه جماعة من أهل حمص فقتلوه سنة أربع وستين للهجرة (٦) .

وقد خلف النعمان من بعده ابنتين وخمسة صبية (٧) ولولوا له من امرأتين

(١) شعر النعمان ١٥٦ و ١٥٧ ، وأوهى : أضف ، والصفاء : الصخرة للسوء ، والأشائم : من الشؤم . (٢) المصدر السابق ص ١٥٧ . (٣) الأغاني « الثقافة » ١٦/١٦ .

(٤) تاريخ الخلفاء ٢١١ . (٥) حقه ٢١٤ .

(٦) تهذيب الأسماء واللغات ١٢٩/٢ ، وأسابغ الأشراف ١/٣٦٤ . وفي سنة خمس وستين انظر الأغاني « الثقافة » ١٦/٤ والأصابع ت ٨٧٢٢ .

(٧) انظر في ابنته الأغاني « الثقافة » ١٦/١٩ و ٢٠ و ٢١ وأسد القباية ٥/٢٢ ، =

إحداها أم عبادة بنت هانيء الكندية التي يخاطبها بقوله حين ولي اليمن :
 إني لمرء أيك يانة هانيء لو تصحبن ركابي لشقيت
 وتحر أمك أتنا لم نصطحب فدعي التيسط للقاء نسيت
 واقمني حياك واقمدي مكفية إن كنت للرشد المصيب هديت
 ولعل ذلك أن يراد فكريه
 وهناك إن عفت السقار عصيت
 أنتي تذكرها وغمره دونها هبت بطن قناة من برهوت
 لو تسلكين به بغير صحابة
 عصراً طرار سحاب طه سئبكيك (١)
 فهو يؤخر لها أن تبقى عند أهلها ولا تنضم عناء السفر معه ، فيذلك تحقق
 رغبة أمها ، وتقصد معها مكفية الخواص ، ميسرة البص ، وينهبها إلى أنها قد تكرو
 -الارتحال - بعد الصروع فيه - وتمنى لو كانت مكثت ، وهناك ان ينفضها الندم
 شيئاً ، ولن يرجعها بعد تقدم السفر ، ويهود النيمان فيذكرها بمشد الشقة ومصاعب
 الطريق لعلها تقرب إلى الراحة ، وتقنع بالبقاء .
 وفي ديوان النيمان قصيدتان أخريان يذكر فيها زوجها أم عبادة الكندية ،
 وقد كنت رجعت في إحداها - عند الحديث عن النزول - أن يكون قد مرض
 بينها شهر من «سوء التمام» في بعض فترات حياتها الطويلة ، فإذا هو يسأل
 الأمر على سبيل النزول التقليدي ، مزجاً الواقع بالخيال ، وهو مزج لم يكن يفتي
 = وتضيقاً لياً في مقدمة شعر النيمان الدكتور يحيى الجبوري ص ١١ وما بعدها .
 (١) شعر النيمان ١٣٨ وما بعدها ، والسفار : السفر ، وغمره : موضع بين نجد وتامة ،
 وقناة : واد بالمدية ، وبرهوت : واد بمضرموت ، والطرة : القطعة الطويلة من السحاب تبدو لي
 الأفق ، وفي الديوان عصراً طرار سحابة ، وبالناه ينكسر الوزن .

عن أم عبادة أي عنصره يريد (١) . أما القصيدة الثانية فهي تعبر عن حزنه لفرانها
 الذي كان يضطر إليه - في أغلب الظن - بسبب وطائفه (٢) .
 وامرأة النيمان الثانية هي نائلة الكلية (٣) ، وهو لا يذكرها في شعره على
 نحو ما يذكر أم عبادة ، ولكنه في غزله بكفي امرأة بأبم الطورث ، ويطلق عدة
 مقطوعات غزلية أخرى دون تمييز ، وليس بيسداً ان تكون نائلة هي أم الطورث
 نفسها ، فإن لم تكن هي أم الطورث فقد تكون بعض المقطوعات السالفة تعنيها .
 ولم يترك النيمان أسرته من بعد فحصب ، وإغا ترك أيضاً ديواناً من الشعر
 قام بتحقيقه الدكتور يحيى الجبوري ، وذكرها حسناً بما حظي به من صحبة ونفقة
 وحديث ، وبما كان عليه من كرم (٤) وإيثار للعدل ونصيحة للمسلمين ، وبما وهب
 من ليمتني ساذق في الخطابة (٥) والشعر ، وكان مما أعلن على استمرار ذكره أن
 بلدة «المبرة» قد أسبغت إلى اسمه وكان اجتاز بها فتوفي له ولد فيها فدفنه ، فسميت
 «مبرة النيمان» (٦) .
 ويبدو أن مراقبة أسرة النيمان في قول الشعر كانت من دواعي ميله إليه ،
 ذلك أن جده سعد بن الحصين ، وأباه بشير بن سعد ، وعمه الحصين بن سعد كلهم
 شعراء ، وكان في اولادهم وإسياطهم ممن يقرضون الأشعار كثير (٧) ، ومعلوم أن
 خاله عبادة بن ربيعة كان ممن تصدوا بأشعارهم مع حسان وكعب للمتركين ،
 وانفقوا عن النبي ﷺ ودعوته .
 ويروي أبو الفرج قصة الأبيات الأولى من شعره فيقول : «خرج النيمان بن
 بشير في ركب من قومه ، وهو يومئذ حديث السن ، حتى زلوا بأرض من الأزد
 يقال لها جعفر وحاضرتها بنو القين ، فأهدت لهم امرأة من بني القين يقال لها
 ليلى هدية ، فبينما القوم يتحدثون ويذكرون الشعراء إذ قال بعضهم : يا نيمان هل
 (١) انظر ديوانه ص ١١٧ وما بعدها . (٢) انظر ديوانه ص ١١٢ وما بعدها .
 (٣) الطبري ٧٢٢/٧ . (٤) انظر على سبيل المثال قصة إكرامه لأعمش حدثت
 عندما شكوا إليه صلح ، وكان النيمان على حصن فجمع له عشرين ألف دينار . الأغانى (الثانية) ٧/١٦
 (٥) تهذيب التهذيب ١٠/٤٤٨ ، ومرة سائر صفاته من قريب .
 (٦) اللاموس المحيط ٤/١٨١ ، وتقع مبرة النيمان على بعد ٩٠ كم من حلب على طريق حاة .
 (٧) الأغانى والثقات ١٦/١٤ و ١٩ و ٢٠ و ٢١ .

قلت شعراً؟ قال : لا والله ما فعلت ، فقال شيخ من بني الحارث بن الخزرج يقال له ثابت بن سبيك : لم نقل شعراً قط ؟ قال : لا ، قال : فأقسم لئن لم يبتلعني هذه الشرحة فلا نفاقها حتى يرتحل القوم أو تقول شعراً . فقال عند ذلك وهو أول شعر قاله :

يا خليلي ودعاً دار ليلى ليس مثلي يحلّ دار الهوانِ
إن فينيّةً تحلّ محبباً فحفيراً فجنّتي ترّفلانِ
لا تواتيك في المغيّب إذا ما حال من دونها فروع القنانِ
إن ليلى ولو كسلفت بليلى عاقبا عنك عائق غير وإن

قال : وضرب الدهر على ذلك وأق له زمن طويل ، ثم إن ليلى القينينة قدمت عليه بعد ذلك وهو أمير على حمص ، فلما رآها عرفها فأنشأ يقول :

ألا استأذنت ليلى فقلنا لها لحي وما لك أن لا تدخلني بسلام
فإن أناساً زرتهم ثم حرموا عليك دخول البيت غير كرام
فأحسن صلتها ورفدها طول مقابها إلى أن رحلت عنه ، (١) .

وتدور أم الموضوعات التي طرقتها النعمان في شعره حول الحكمة والنزل والفخر والوصف ، وأم ما ترك في الموضوع الأول القصيدة التي القافية والرابعة من ديوانه ، وقد ذكرت أولها في مواضع متفرقة من البحث ، وسوف أتحدث عنها في نهج القصيدة عند النعمان ، أما القصيدة الأخرى فبدأ بتسبيح الله الذي أنزل الدين على الناس واسطق منهم محمداً ﷺ رسولاً مبلياً ونذيراً مبيناً ، وخلق من السموات سبأ طباقاً ، ومن الأرض مثظين ، ومهد السبل ، وأرض الجبال ، وأسبغ النعم ، ثم كان عالم الضر ، قبل أن تخلق البشرية ، فأخرج الله من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشبههم على أنفسهم : أأنت بربكم ؟ قالوا بلى ، عهداً علينا مؤكداً ، وبين النعمان سبب هذا الإيهام فيقول :

(١) الأغانى ، العنفة ، ١٢/١٦ - ١٣ .

أكيلاً يقولوا إننا ضلّ قبلنا القرون نصارام ومن قد نهوداً
وكنا خلوفاً بمدم لم يكن لنا كتاب ، ولم يجعل لنا الله موعداً
فهذا كتاب صادق يدرسونه لمن خاف منكم ربه ثم سدداً (١)
ثم بدعو النعمان إلى اتباع النبي وما أنزل إليه من ذكر حكيم وقول حق

فيقول :

ألم تعلموا أن قد أتاكم رسوله يقول حكيم صادق ثم وصداً
وبلّغكم ما قد أتاكم من الهدى وهم عليكم بالثناء ونذداً
فلا تك صدأداً عن القصيد والهدى

أصم إذا تدعى إلى الحق أصيداً
عليكم بعبادات النبي واتباعها وكل امرئ جار على ما تموداً (٢)

ويتابع النعمان بن بشير ذكره نعم الله فهو مقلب الليل والنهار ، وهو الكريم الرازق ، وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات سائح نوابه ، وهذا ملح أجاج ، ويؤكد أن أحدلاً لا يستطيع أن يحيى آلاء الله ، فقد غمرت الناس غمراً . ويتنقل الشاعر بعد ذلك إلى الحديث عن نسم الآخرة ، بعد أن ذكر نعيم الدنيا ، فإن للمتقين بما أسلفوا من صالح الأعمال جنات لهم فيها ما تشبه أنفسهم ، وتقر به أعينهم ، وكأنما يثير حديث الجنة في نفسه كوا من الوجد ، فإذا هو يهزم ألا يقول الشعر فيما سوى الثناء على الله ، سبحانه ، أو مدح النبي عليه الصلاة والسلام . وإلى جانب الحكمة في شعر النعمان غزل كثير ، وغالب ما بصرح باسم التي

(١) شعر النعمان ، ٩٥ . وهو يتأثر قوله تعالى : « وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : أأنت بربكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا ، أت تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلون ، أو تقولوا إنما أشرِك آباءنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ، أتنبئكنا بما فعل البطون . وكذلك فصل الآيات وللمهم يرجعون » الأعراف ١٧٢ و ١٧٣ و ١٧٤ .
(٢) شعر النعمان ، ٩٦ . ووجد : ثبت . وندد : أمن في نداءه وتبليغه . والأصيد : التكبير .

يوجه إليها غزله على نحو ما يصنع في مخاطبة زوجة أم عبادة أو أم الحارث أو ليل
القينية ، ولكنه أحياناً يتقلد تحديد مراده ، وكانت مرت بنا القصيدة التي يحن
فيها إلى أم عبادة ببعض أسفاره ، كما مرت الإشارة إلى قصيدته الماترة التي ياتها
فيها على سبيل النزل التقليدي ، وبذكر ابتعادها منه ، ووجهه عليها ، وضئها بمجمل
القول عليه ، وجوه بأحلى الحديث لها ، وهجرانها الطويل المستمر ، ومشقة أن
يمر عليه يوم دون لقائها ، ومحاولتها - مع كل ذلك - أن تبقى مودة النيران لكنه
- بعد أن قدم دونها من الصبر ما قدم ، فلم تقدره ، بأي أن يذل أو أن يظلم :
علي نأيبها مني وإن كنت عاباً عليها وكانت في التجنب أظلماً
تجود لها نفسي بجلو حديثها وتبذل بعد البخل ترزاً مترجماً
يطول علي اليوم دون لقائها وتهجرني حولاً جديداً مجرماً
تحاول وذني إذ تولت بودها أني الله قبل اليوم أن أنهضها (١)

ويريد النيران أن يغير هذه الفكرة في ذهنها فيلقنها إلى غناه الذي من
عليه به مولاه ، وإلى أن سبه في الماضي لم يكن إلا رغبة في القرب ورقاباً
بالوصال ، أما وقد صار التباعد أحزم وأسلم ، فإنه لم يزل يند وتحمس للفراق
أو يقظ إلى ما عملت ، وتنتدم على ما أسلفت :

وإني - محمد الله - لم تمس ليلة من الدهر ألقى عارياً متقصباً
ولكن رفيق بالوصال ومزجل عزوف إذا كان التجنب أحزماً
فصبراً على شحط الذوى ولعلها من الدهر يوماً أن تفيق وتندما (٢)

ويشبه غزله بأم عبادة ما قاله في أم الحويرث ، فهو يحن لذكراها ، وينوق
- إذ فرقت بينها النوى - إلى لقاها ، ثم يتحدث عن وشاة مجاولون فصح عرى
عزيبها ، وأهم جلواها تنزع إلى الصرم ، ولكنه يهديها إلى طابته ، فهو يحرس

(١) شعر النيران من ١٢٠ . والعب : الموجهة . والقر : القليل . والترجم : المفسر . والمجرم :
النام . وأنهم : أظلم . (٢) من ١٢٦ ، ومزجل : مبعده . والشحط : البعد .

على الوصال وعلى اللقاء ، إلا أنه - إذا التوى - صب المتفاد ، بأبي الموان ، ولو
ضحى بهواه (١) . وقد أشرت إلى احتمال تكتيته بأم الحويرث لزوجه نائلة بنتي حمير
الكلبية ، ضرة أم عبادة ، واحتمال مراده بها أم عبادة نفسها ، لترديده أنقسام
قصيدته السابقة .

أما ليل القينية فنزله فيها - كما هو واضح من خير الآيات الأولى التي قالها
- تقليدي محض ، نظمه في جدانة منه ليصطلح من بين شيوخ القباضة الذي أقدم
عليه - كما رأينا - « لتربطن» إلى هذه السرجة فلا تفارقها حتى يرتحل القوم أو
تقول شعراً (٢) ، وكانت ليل أهدت القوم حين زلوا هدية فقال فيها آياته المتقدمة ،
ثم التقى بها وهو أمير على حمص فصرها وأحسن صلتها ورفقها إلى أن رحلت ،
ولما لاكرامها القديم وهديتها المذكورة . وقد يكون فكر في أمثلة زول القباضة
بخطبة ليل ، لكن صغر عمره ، من جهة ، وعطه بسرعة الرحيل ، من جهة أخرى
جلاه يشبه أمره مما بين ينجح الثريا جهلاً ، فهي شابة ، وسبيل - في قلبها
مخلفين أبدأ (٣) ، ولما عرض أن التقى بعد إمارته ، كان قد تزوج أم عبادة ، وربما
كان قد تزوج ضرتها نائلة أيضاً ، فلم يكن منه إلا أن ير هديتها السابقة .
أما القطوعات التي لم يذكر فيها من يراد بها ، فيمكن من خلال ما تقدم
من غزله - أن تلحقها بإحدى زوجتيه (٤) ، أو أن نمدها غزلاً تقليدياً بشير امرأة
حقيقية (٥) .

ويتحدث النيران في قسم من غزله عن انساب عشيرته إلى قبيلة أم الأوس
والخزرج (٦) ، ومصاهرتهم بني المنقاء وأبي عمرو ، وفرايتهم إلى آل عمران وعمرو
ابن عامر من أجداد القحطانيين (٧) ، وهو ما أشرت في الفخر إلى تأسيته فيه خطأ
الشعر الجاهلي ، ويتحدث في قسم آخر عن كرم عشيرته (٨) وشجاعتهم (٩) ، وحلهم (١٠)
وفي قيم قديمة استمرت موحدة بعد الإسلام ، ويتحدث في قسم ثالث عن استقرازه

(١) من ١٣٥ . (٢) الأمان : القباضة ١٢/١٦ . (٣) انظر شعر النيران ١٢٩ .
(٤) كاذبي زواه في ديوانه من ٨٣ و ١٠٤ و ١٣٧ و ١٦١ . (٥) انظر من ١٠٦ .
(٦) شعر النيران ٨٠ . (٧) شعر النيران ١٠٢ . (٨) شعر النيران ٨٠ .
(٩) من ١٤٤ . (١٠) من ١١١ .

بالأنصار، وجهادهم يوم بدر (١) ومكرهم يوم السقيفة (٢)، وهذه آثار جديدة تولدت بعد الإسلام.

ويأتي وصف الناقة على رأس أشعار النعمان في هذا الفرض، فهو يسلي لبان هواء على ناقة جميلة تنعم كلما أرهقت، وترسل إلى آمان رحلتها البصر الثاقب (٣) وقد بطوي الفلاة على ناقة قوية شديدة الأثر، ضخمة كأنها الجمل، بيضاء كبقر الوحش، قد أليفت السفر فصار عندها أمراً متاداً:

مُدَاخَلَةٌ سَرَحَةٍ جَسْرَةٍ عَلَى الْأَيْنِ دَوَسْرَةٍ كَالْجَلِ
هَجَانٍ كَلُونِ مِهَابِ الصُّوَارِ - عُجْرٍ السَّفَارِ وَهَبِ الْبَدَلِ (٤)

وبسلي أن يصف النعمان الصحراء - مجال الناقة - وقد مر بنا تصويرها وكيف يخاف اتساعها القطا، فيجتمع أسراباً اسراباً (٥)، وسوف يأتي بسد قلب وصفه مفازة خالية كالبرية الموشى، وما وصفه النعمان ظواهر السحاب وزول النبت وقد ذكرت آياته في ذلك مع الوصف، وما تناوله أيضاً السلاح، يقول في بعض شعره:

وَالْأَجْرَدُ خَوَارُ الْعَيْنِ كَأَنَّهُ بِدَوْمَةِ مَوْشِي الذَّرَاعِينَ صَائِمٌ
وَأَمْرٌ خَطِيٌّ كَأَنَّ كَعْبَهُ

نَوَى الْقَسْبِ فِيهَا لَهْدَمِي خُثَارِ (٦)

فصاحبه درج بنية تبعية، وسيف أبقر، وفرس طائر الجري، جميل المرأى، وريح عمامي كأن عقده نوى النمر إذا كانت حافة صلبة.

(١) قصه ١١٧. (٢) قصه ١٤٤. (٣) شعر النعمان من ١٢٣. (٤) شعر النعمان من ١٠٨. ومداخلة: مدجبة الخلق. وسرحة: طوية. وجسرة: مانضية. والأين: الثقب. والصوار: قطع البقر. وعبر السفار: كثيرة الرحلة. والبديل: وجع في اليدين والرجلين. (٥) شعر النعمان من ٧٩. (٦) قصه من ١٥٣. والبز: السلاح، واللأفة: الدعج، والأجرد: القصب الثمر، وموشي الذراعين: لونها يخالف سائر جده، صائم: قائم، والقصب: الثمر، والهنمي: القاطع، والخثارم: الغليظ.

ولعل من الواضح في موضوعاته الشعرية ولا سيما الأول منها، تأثرها الشديد بالقرآن الكريم في معانيه وصوره وألفاظه.

وقد مر بنا من قريب تأثره بحكاية القرآن التي تخبر كيف أخرج الله من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم: ألمت بربكم؛ قالوا: بلى، ومن يقرأ قصيدته الثالثة في ديوانه يرها تفيض أيضاً بالمعاني القرآنية، فهو يتأثر بقوله تعالى: «كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام» (١) فيقول:

كُلُّ شَيْءٍ سِوَى الْمَلِكِ يَلِيدٍ لَا يَلِيدُ الْمُسَبِّحِ الْمَحْمُودِ (٢)
ويتأثر بقوله تعالى: «عالم النيب والشهادة هو الرحمن الرحيم» (٣) فيقول:

عَالِمِ النَّيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَالْفَضْلِ وَذُو الْمَنِّ وَالْجَلَالِ الْحَمِيدِ (٤)

وقوله تعالى: «أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يسكنن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير» (٥) فيقول:

وَلَهُ الطَّيْرِ فِي السَّمَاءِ تَرَاهُنَّ - قَرِيباً وَدُونَهُنَّ صُودٌ (٦)

وقوله تعالى: «وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام» (٧) فيقول:

وَلَهُ الْجَارِيَاتُ فِي لُجَجِ الْبَحْرِ قَنَمًا مُوَخِرٌ وَرَكَودٌ (٨)

ومن يستكمل هذه القصيدة وكذلك القصيدة الرابعة بعدها، يجدها تشبهان أن تكونتا نظماً لآيات الذكر الحكيم.

ومن صور النعمان التي اقتبسها من كتاب الله - سورة يونس بن متى عليه السلام وقد ابتلمه الحوت فنأدى - وهو في ظلمة جوفه - سائلاً الله أن ينجيه، فاستجاب له ربه وأذهب عنه ما نزل به من بأس:

وَأَبْنُ مَتَّى الْقَدِي تَذَارِكُهُ اللَّحْمُ مِنَ النَّمِّ وَهُوَ فِيهِ حَمِيدٌ

(١) سورة الرحمن ٢٦ و ٢٧.	(٢) شعر النعمان ٨٥.
(٣) سورة الحجر ٢٧.	(٤) شعر النعمان من ٨٥.
(٥) سورة الملك ١٩.	(٦) شعر النعمان ٨٧.
(٧) سورة الرحمن ٢٤.	(٨) شعر النعمان من ٨٦.

فَدَا دَعْوَةً وَقَدْ غِيَّبَتْهُ ظَلَمٌ دُونَهَا حَيَادِسُ سَوْدٍ^(١)

والقرآن يرسم السورة على هذا النحو: « وذا النون إذ ذهب مُنْصَاباً ،
ظُننٌ أَنْ لَنْ تَقْدِرَ عَلَيْهِ ، فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ ، أَنِّي
كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَخَمِينَاهُ مِنَ النَّوْمِ ، وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ،^(٢)
ويرسم النعمان بمض صور العذاب يوم القيامة فيقول :

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَحْذَرُوا شَرَّ يَوْمٍ قَطَّرِيرٍ عَذَابُهُ مَشْهُودٌ
فَطَعَامُ النَّوَاةِ فِيهَا ضَرِيحٌ وَشَرَابٌ مِنَ الْحَمِيمِ صَدِيدٍ
كُلَّمَا أُخْرِجَ اللَّعِينُونَ مِنْهَا سَاعَةً مِنْ عَذَابٍ غَمٌّ أُعِيدُوا^(٣)

فيكرر تكراراً للصور التي رسمها الذكر الحكيم: « يوماً عيوساً قطريراً ،^(٤)
« ليس لهم طعام إلا من ضريح ،^(٥) « لا يذوقون فيها برداً ولا شرباً ، إلا
حميماً وغساقاً ،^(٦) « كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ، وذوقوا
عذاب الحريق ،^(٧) .

وليس قريباً بعد هذا أن يحدد كثيراً من الألفاظ القرآنية في شعره مثل :
مالك الملك^(٨) ، والدين^(٩) ، ويديهم ويبيد^(١٠) ، وفي المارج^(١١) ، وقوم تبع^(١٢) ،

- ١) شعر التماس من ٨٩ ، وعيد : حزين ، والحندس : الليل القديد الظلمة
- ٢) الأنبياء ٨٧ و ٨٨ ، وانظر القصة في تفسير البضاوي ٤٣٦ ، وقصص الأنبياء
للشملي ٣٦٦ . ٣) شعر النعمان من ٩٠ ، وقطارير : شديد ، وضريح : من أطعمة
جهنم ، والحميم : الماء الشديد الحرارة ، والصديد ماء المرح الرقيق والحميم أغلي حتى خثثت .
- ٤) سورة الإنسان ١٠ . ٥) سورة الناشية ٦ . ٦) سورة النبأ ٢٤ و ٢٥
- ٧) سورة الحج ٢٢ . ٨) انظر شعر النعمان ٨٥ وسورة آل عمران ٣٦ .
- ٩) شعر النعمان ٨٦ وسورة النصر ٢ ، والانفطار ١٧ . ١٠) شعر النعمان
٨٧ وسورة البروج ١٣ . ١١) شعر النعمان ٨٧ وسورة المارج ٣ .
- ١٢) شعر النعمان ٨٧ وسورة السخان ٣٧ .

وغود^(١) ، وشيب^(٢) ، وهود^(٣) ، والنبي^(٤) ، وكتاب^(٥) ، وتقتصر منه
الجلود^(٦) ، والحساب^(٧) ، وشقي وسيد^(٨) ، والصالحون^(٩) ، ورحمة الله^(١٠) ،
والنصل^(١١) ، والقرآن^(١٢) ، وسائق وشهيد^(١٣) ، واليقين^(١٤) ، وتبارك^(١٥) ،
وذو المرث^(١٦) ، ورسول^(١٧) ، والوحي^(١٨) ، وسبأ طباقاً^(١٩) ، والخالق^(٢٠) ،
ومرج^(٢١) ، وجنات^(٢٢) ، وقواب^(٢٣) .

وعبارة النعمان عندما مسحها القرآنية تسهل وتيسر وتتلئس وتلين في الموضوعات
الرفيعة ، وتقوى وتجزل بل تنزرب في الموضوعات الحماسية والتبديعية ، ولا بأس أن
تقرأ مثلاً للضرب الأول ، وهو قوله :

رَحْمَةُ اللَّهِ يَوْمَ ذَلِكَ تُنْجِي مَنْ نَجَا مِنْ عَذَابِهِ وَالْجُدُودُ

- ١) شعر النعمان ٨٧ وسورة الأعراف ٧٣ .
- ٢) شعر النعمان ٨٨ وسورة هود ٨٤ . ٣) شعر النعمان ٨٨ وسورة
هود ٦٠ . ٤) شعر النعمان ٨٩ وسورة الضحيم ١ .
- ٥) شعر النعمان ٨٩ وسورة البقرة ٢ . ٦) شعر النعمان ٨٩ وسورة
الزمر ٢٣ . ٧) شعر النعمان ٩١ وسورة النبأ ٢٧ . ٨) شعر النعمان
٩١ وسورة هود ١٠٥ . ٩) شعر النعمان ٩١ وسورة الانبياء ٧٥ .
- ١٠) شعر النعمان ٩٢ ، وسورة البقرة ٢١٨ ، وآل عمران ١٠٧ .
- ١١) شعر النعمان ٩٢ ، وسورة المرسلات ٣٨ . ١٢) شعر النعمان ٩٣ ، وسورة
طه ، والإنسان ٢٣ ، والحجر ٩١ . ١٣) شعر النعمان ٩٣ ، وهورة ق ٢١ .
- ١٤) شعر النعمان ٩٣ ، وسورة الشكائر ٧ . ١٥) شعر النعمان ٩٤ وسورة
الملك ١ . ١٦) شعر النعمان ٩٤ وسورة البروج ١٥ . ١٧) شعر النعمان ٩٤
وسورة آل عمران ١٦٤ . ١٨) شعر النعمان ٩٤ وسورة الأنبياء ٤٥ .
- ١٩) شعر النعمان ٩٤ وسورة فوح ١٦ . ٢٠) شعر النعمان ٩٨ ، وسورة
الحجر ٢٤ . ٢١) شعر النعمان ٩٨ وسورة الرحمن ١٩ . ٢٢) شعر النعمان
١٠٠ وسورة مريم ٦١ . ٢٣) شعر النعمان ١٠٠ وسورة آل عمران ١٩٥ .

خيرٌ ذخر مع اليقين لئبد عملٌ صالحٌ وقولٌ سديدٌ (١)
فالألفاظ واضحة عذبة ، والجد مناسبة لينة ، ومثال النوع الثاني قوله بصف
بأس قومه :

ليوثٌ إذا الحرب المَضوضُ تلقَّحتْ

بذي مرةٍ الفتيان أو نتجت سقبا
أهانوا لها ما دونها ونسرتلوا من الحلق الماذي مُخلصة شهباً
بنوا الحرب ربثهم طماناً إذا انجلت لهم عن ذمارٍ ماجدٍ سمعوا حرباً
أولئك ، بعد الله ، عوني وناصري

إذا خفت في الأقوام من رهق كريباً (٢)

فالكلمات قوية فضمة ، والمباراة مُجَنِّجَةٌ ضاجئة ، ويتضح ذلك إن يقرأ
الآيات بصوت يتأوج مع تياراتها المنوية وموضوعها . وقد يصحب الجزالة إغراباً
في الألفاظ عندما يتحدث عن الناقة والصحراء في نحو قوله :

تخاوصُ للرأي البميد وتقي بأعقاب عينها القطيع المحرماً
إذا الفائطُ المرؤتُ أمسى كأنه برى في شعاع الشمس برذاً منمماً
طوت غرله ليلاً فأصبح خلفها ولو بعدت أعلامه ونجها
سأعملها في النص حتى أكلها وحتى تبيل الخف من نقب دما

(١) شعر النعمان ٩٢ و ٩٣ . (٢) شعر النعمان من ٨١ . والمضوض : الشديد المهلكة
وتلقحت : اشتدت . والمرءة : الأحكام والقوة . والنقب : الذكر من ولد الناقة . ونسرتلوا : لبسوا
السريال وهو القميص . والحلق الماذي : الدرع اللينة . ومخلصة : صافية . وشهب : يمش . والذمار :
ما يذني على اللراء حماجه . والرهق : السفه والظلم .

وحتى تشكسى من كلالٍ ونهكةٍ

ومن نصب الأخياف خفناً ومنسباً (١)

فالتخاوصُ والقطيع الحرم والمائط المرؤت ، والبُرءُ المنمَّم والنموت
والأعلام والنص ، والأخياف ، والمنسيم ، ألفاظ صحراوية غريبة ، وتراس الكلمات
خلال الجمل وقوة جزالة العبارات ، كل ذلك ألقان بدوية وقمتها رواد الشعر منذ
الجاهلية .

ومن يرجع إلى ديوان النعمان يلق فيه من الآثار الأولية لا هذه الألقان
فحسب ، وإنما أيضاً حفاظه على منوج القصيدة القديمة وهيكلها الموروث ، وأمل خير
مثال لذلك قصيدته السابعة ، فهي تبدأ بالوقوف على الأطلال الدارسة ، وقراءة معالمها
واستكشاف أماكنها ، حتى إذا عرف أنها دار محبوبته تهيج دمه ثم جعل يتذكرها
في وسواحها ، وينزول بين غزلاً تقليدياً يمد لفرسه وهو المدح والافتخار ، فيأتي
على مدوحه ، ويحب إليه على ناقة نشطة ضخمة قوية ، حتى إذا بلغه انكفاً يفضر به
وبشيرته ، وعندئذ نلم أن مدوحه إنما هو من قومه ، وأن هؤلاء إن لم إلا
الأنصار يثرب (٢) .

وفي ديوان النعمان إلى جانب الهيكل القديم للقصيدة العربية منهج جديد ،
ويمكن أن نغل له بقصيدته الفالفة ، فهي تستفتح بتغزیه الله - عز وجل - والثناء
عليه ، وذكر فضله وآلائه ووحسانيته ، ثم تتحدث عن القرون انطالية كلكوك
التبابعة وقوم صلح وشيب وهود ، وقصة ابتلاع الحوت لبولس ، ثم تنتقل إلى
الحديث عن دعوة الإسلام ورسالة النبي وزول القرآن ، وتحذّر من هذاب جهنم
ويوم الحساب ، ثم يناجي النعمان ربه ضارعاً إليه ليُنشجيه من هنول الآخرة ،
ويتولاه بمنفرته يوم يأتي معه سائق وشهيد ، وتنتهي الآيات ببيان النعمان أن خير

(١) شعر النعمان من ١٢٤ . وتخاوص : تكسر بصرها وتحدقه . والقطيع : الوسط . والحرم :
الجديد . والمائط : اللطش من الأرض . والمرؤت : مفازة لا بسات فيا . والبرء : السير الشديد .
والكلال : الأعياء . والأخياف ج خيف وهو الموضع ما بين سبل الماء وغلط الجبل . والنمس : خف
البيهر . (٢) انظر القصيدة في ديوانه من ١٠٥ وما بعدها .

ذخر للره - مع يقينه - وعمل صالح وقول سديد» (١).

وقارى شعر النيمان يجد بعض نتاجه ينتهج سبيل المقطوعات الشعرية دون القصائد، وهي مقطوعات تتألف من اثني عشر بيتاً (٢) أو عشرة (٣)، أو سبعة (٤)، أو ستة (٥)، أو ثلاثة (٦)، أو بيتين (٧)، إلا أنه لا بد من التنبيه إلى ما يرجح في بعض مقطوعاته من انسلاخها من قصائد طويلة أرى عليها الضياع (٨).

ب - أبو الأسود الدؤلي :

ولد أبو الأسود ظالم بن عمرو بن سفيان (٩) الدؤلي الكناني في ديار بني قومه في الحجاز قبيل البثة النبوية بسير (١٠)، وكان أبوه عمرو قد قيل كافرأ في

(١) انظر القسيدة في ديوانه من ٨٥ وما بعدها

(٢) انظر شعر النيمان من ١٦٢ (٣) المصدر السابق ١٤٤

(٤) المصدر السابق ١٣٨ (٥) المصدر السابق ١٢٨

(٦) المصدر السابق ١٤٧ (٧) المصدر السابق ١١٦

(٨) انظر المصدر السابق ٧٩ و ٨٣ و ١٠٢ و ١٠٤ و ١٣١ و ١٤١ و ١٥٩ و ١٦١

(٩) هذا أرجح الأقوال في اسمه، وعليه كثرة المصادر، انظر طبقات ابن سعد

٧/٩٩، وكفى الشعراء لابن حبيب، مطبوع مع نوادر المخطوطات. بتحقيق عبد السلام

هارون (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٢٨١، والأغاني (الثقافة) ٣٠١/١٢،

ومعجم الشعراء ٢٤٠، والإصابة ت ٤٣٢٩، وبنية الوطاة ٢/٢٢، والزهر ٢/٤١٨،

وخزانة الأدب ١/٢٨١، وقيل هو ظالم بن عمرو بن جندل بن سفيان (المعارف

٤٣٤، والمؤتلف والمختلف ١٥١، وشذرات الذهب ٦/١١٤)، أو ظالم بن عمرو بن

ظالم (بنية الوطاة ٢/٢٢)، أو ظالم بن سراق (المؤتلف والمختلف ١٥١)، أو عمرو

ابن ظالم بن سفيان (معجم الشعراء ٢٤٠) أو عمرو بن سفيان بن ظالم (الزهر

٢/٤١٨) أو عويمر بن ظويم (البداية والنهاية ٨/٣١٢) أو سارق بن ظالم (تاريخ

ابن عساكر «دار الكتب» ١٨/٤٩٣) أو عثمان بن عمرو (كفى الشعراء ٢٨١) أو

عمرو بن عمران (الإصابة ت ٤٣٢٩) أو عمرو بن شيان بن ظالم (المؤتلف والمختلف

١٥١) ... وانظر الخلاف في اسمه موسماً في تاريخ بن عساكر «دار الكتب»

١٨/٤٩٣ وما بعدها. (١٠) انظر رواية أنه ولد في الجاهلية المزهر ٢/٤٦١،

وزهرة الألباء ١٣.

بعض المارك التي حاد فيها رسول الله ﷺ (١)، وكانت أمه من بني عبدالمدار بن قصي (٢)، ويبدو أن أبا الأسود أخذ منذ استوى عوده يتدبر في موقف أبيه من الإسلام، وسناوانسه له، ودخول غير أبيه في دين الله أفواجاً، وأيس من شك أنه قد تبلغ من رجال الدعوة الذين كان يبشهم النبي ﷺ في القبائل قديراً صالحاً من مبادئ الرسالة، فإذا هو يشكو موحداً ويترك ما كان يبعد آياؤه الأقدمون.

وتشير الروايات إلى أنه أسلم في حياة النبي ﷺ، ولكنه لم يره (٣)، وأنه لذلك يمد من التابيين (٤)، وكان أبا الأسود أراد ان يروض شيئاً مما فاته من

لقاء النبي ﷺ فجعل ينهل عن أصحابه من أمثال عمر وعلي وابن عباس وأبي ذر (٥) رضي الله عنهم، وعرض القرآن الكريم على أبي السبطين (٦)، وتسمق علم

الكتاب والسنة، فقدا قصباً (٧) عدناً (٨) فارثاً (٩)، وربما رأى عمر بن الخطاب فصاحته ونباهته وبسطته في العلم، فبث به إلى البصرة، وأغلب الظن أنه أرسله

ليفقه الناس في دينهم، ويقوم ألتهم بما اكتسبته من رطانة عممية، ومهما يكن فإن أبا الأسود بدأ منذ ذلك الحين يتقلب في وظائف الدولة لمهدهم (١٠)، ثم

عثمان من بعده (١١)، حتى إذا استخلف علي اشتغل كتاباً لأن عباس والي البصرة (١٢)، ثم تولى قضاءها (١٣)، ثم عين أميراً عليها بعد ابن عباس (١٤).

(١) الإصابة ت ٤٣٢٩ (٢) المعارف ٤٣٤ (٣) تهذيب التهذيب ١٢/١ وسرآة

والبداية والنهاية ٨/٣١٢ (٤) الشعر والشعراء ٧٢٩ ومعجم الأدباء ١٢/٣٥ وسرآة الجنان

١٤/٤٤ وانظر أسد النابه ٣/٧ إذ يؤكد ابن الأثير أنه تابعي ويرد قول ابن شاذان الذي ذكره في الصحابة (٥) انظر شيوخه في الأغاني «الثقافة» ١٢/١٣ و«المعجم الأدباء» ١٢/٣٥

(٦) تاريخ الخلفاء ١٦٦ (٧) الأغاني «الثقافة» ١٢/٣٠١ و«المعجم الأدباء» ٢٠/٣٧

وسرح الصيون لابن نباتة «مصر ١٢٧٨» ٤٥٠ ومعجم الأدباء ١٢/٣٥

(٨) الشعر والشعراء ٧٢٩، وتهذيب التهذيب ١٠/١٠٠ (٩) إنباء الرواة ١/١٥

(١٠) (١١) الأغاني «الثقافة» ١٢/٣٠١ (١٢) خزانة الأدب ١/٢٨٢

(١٣) إنباء الرواة ١/١٩، وتهذيب التهذيب ١٢/١٠، وبنية الوطاة ٢/٢٢، وذكر ابن كثير أنه كان قاضي الكوفة، لا البصرة، وأغلب الظن أنه لم يقص فيها، إلا ثبت، إلا

يسيراً لأن كل الروايات تحدد عمله في البصرة. انظر البداية والنهاية ٨/٣١٢.

(١٤) ابن سعد ٧/٩٩ والشعر والشعراء ٧٢٩ والأغاني «الثقافة» ١٢/٣٠١ ووفيات ٢/٧١٨ =

وتذكر الروايات أن حزازة كانت بينه وبين زياد بن أبيه منذ ذلك الحين ، وكان زياد على الديوان والحراج ، وكان يقع في أبي الأسود ، فقال فيه :

رأيتُ زياداً ينتحيني بشره وأعرض عنه وهو بادٍ مقاتله
وكل امرئ - والله بالناس عالمٌ - له عادةٌ قامت عليها شائله

... الأبيات (١) ولا نلت الأحداث أن تسفر عن مقتل الإمام وخلافة معاوية ، فيمزل الدؤلي ، لنشئته ، عن زعامة البصرة وقضايتها ، وبدأ منذ ذلك الوقت في معاناة همومه ومخاوفه ، وكان أبا الأسود ، وقد ذهبته منه الولاية ، ظن أنه أقتلت منه كل شيء ، وأنه قد أُلحِط إلى الحضيض ، ولولا القلق الذي أسابه لأدرك أنه كان على كل حال في خير كبير ، فالروايات تخبرنا أن معاوية كان يكرمه ويقدره (٢) ، وأنه حتى هذه الفترة بل حتى نهاية حياته كانت يملك مالاً ورياشاً وعبداً وإماء (٣) ، وأنه كان يشجر بل يُزجي البضائع مع أجراءه ومواليه (٤) ، وأنه كان يعلم أبناء زياد ويؤدبهم (٥) ، ويبدو أن تذكيره لمنصبه القديم ، وهو يدرس أبناء زياد من ناحية ، وتهاون بعض البصريين ، حق من أسباره الثانية ، في تجلته واحترامه بعدما كان قاضيهم ووالدهم من ناحية ثانية (٦) ، ونكبة الشيبة من ناحية ثالثة ، وكبيره وعجزه (٧) ، من ناحية رابعة أخرى ، كانت من أسباب قلقه الذي أدنى به أن يسترفد أصحابه ومعارفه ، ويجود لمن يلبثونه منهم بمجمل الثناء (٨) ، ويصائب من يمتنون به (٩) ، ويهجرهم (١٠) .

وقد حاول ركندورف « Rechendorf » أن يدعي خبر قوليه البصرة قرأى وأن هذا بعبء الاحتمال ، لأن رجلاً مثل أبي الأسود يصف نفسه في أشعاره بأنه على استعداد لتقبل البد التي تصفه لم يكن كفوّاً لولاية البصرة في الظروف المعصية

- = ورسالة الجنان ١/٢٠٦ . (١) ديوانه ٢١٦ . (٢) بنية الرعاة ٢/٢٢٢ . (٣) وفيات ٢/٢١٨ . (٤) ديوانه ١١١ و ١١٣ و ١٤٦ و ١٥١ و ١٦٦ و ١٨٩ . (٥) وفيات ٢/٢١٦ . (٦) ديوانه ١١٩ و ١٢٨ و ١٧٦ و ١٨٥ و ٢٠٤ . (٧) ديوانه ١٩٥ و ١٩٦ . (٨) ديوانه ١٦٤ وتاريخ ابن عساكر (دار) ١٨/١٠٠ . (٩) ديوانه ١٣٤ و ١٢٦ و ١٥٧ . (١٠) ديوانه ١٠٩ و ١٣٥ و ١٤ و ١٦٨ .

التي كانت تمر بها (١) ، وهو بذلك ينقل الروايات الكثيرة التي نسبت على ولايته لها ، وقد سقنا بعضاً منها ، وينقل عنه التي استثمرها في نهاية حياته ، وهو الزمن الذي رأينا اضطرابه فيه إلى استرداد معاوية والذي يتهمه لذلك ركندورف باستمهاده أن يقبل الأيدي ، وأم من ذلك أنه يشي حسن أخلاق أبي الأسود ، ويصيب مواهبه ، ومن بعد إلى المصادر التي ترجمت حياته برها تذكر له من الاخلاق والمواهب ما لا يعجز منه أي عجز عن إدارة شؤون البصرة ، وقد رأينا تعمقه في الفقه والحديث والقضاء ، وعلم القراءة ، وأيضاً فقد روي أنه أول من نطق الصحف (٢) ، وأنه كان ذا دين وعقل ولسان وبيان وفهم وذكاء وحزم (٣) ، وحلم (٤) ، بل عدوه من أكل الرجال رأياً وأسدهم عقلاً (٥) ، وسلكوه في الأثراف الفرسان ، والدهشة والحاضريه الجواب (٦) .

على أن الرواة يردون من خصاله أيضاً أنه بخيل (٧) ، وقد استدلوا على ذلك بمحايات أو طرف أثرت عنه (٨) ، وقد استنكر بعض الدارسين المعاصرين هذه التهمة ، ودفوها ، ومن هؤلاء الأستاذ علي ناصف ، فهو يستغرب أن يتهم بالبخل رجل بنى في البصرة مسجداً من ماله ، وعُدّه من أهل السيادة والوجاعة والرفق ، والبسر (٩) ، ومن هؤلاء الدارسين أيضاً الدكتور النعمان القاضي إذ يحمل تشييع الدؤلي سبب التشييع عليه بالبخل (١٠) ، وكذلك الأستاذ فتحي الدجيني ، فهو يتهم الروايات التي ذكرت بخلة بالوضع والضخف ، ويذهب إلى أنه لم يكن بخيلاً كما لم

- (١) دائرة المعارف ١/٣٠٧ . (٢) بنية الرعاة ٢/٢٢٢ . (٣) تهذيب التهذيب ١١/١٢٠ . (٤) المؤلف والمختل ١٥١ . (٥) وفيات ٢/٢١٦ ، ورسالة الجنان ١/٤١ ، وانظر أمالي المرتضى ١/٢٩٢ ، إذ يورد قول زياد لأبي الأسود : « لولا أنك كبرت لاستنا بك في بعض أمورنا . قال : إن كنت تريدني لصراع فليس عندي ، وإن كنت تريد عقلي ورائي فيها أوفر ما كانا » . (٦) الأغانى (التافية) ٤/١٢٠ . (٧) المصدر السابق ٤/١٢٠ والصبر والشراء ٧٢٩ ، والمعارف ٤٣٤ ، وشرح العيون ١٥٠ . (٨) انظر البخله للجساحط ١١ و ١٧٨ و ١٥٧ ، وتهذيب ابن عساكر ٧/١١٢ و ١١٣ . (٩) أير الأسود الدؤلي ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٣٨٨ ، ص ١١٢ . (١٠) الفرق الإسلامية في الشعر الأموي ٥٦٢ .

يكن كريماً (١).

وأغلب الظن أن الروايات التي تحدثت عن هذه المرّة إنما نقلتها عن حكايات لا تخلو من مبالغة ، وهي مبالغة أتتها - فيما يبدو - من بعض الناس الذين لا يستقيمون إذا سموا أمراً إلا يتزبدوا فيه على النحو الذي ترضاه أهواؤهم ، وترتاح له أخيلتهم ، فإذا حوالت الظن تصبح عندهم وقائع مشهودة ، وإذا الوقائع الصغيرة تنقلب بتزويدهم مضرب الأمثال ، وإذا كان الدوّلي قد نمم بثبّية من المال حتى آخر عمره فإن هذا لا يعني أن حياته - كل حياته - قد مرت على هذا المنوال ، وليس بعيداً أن يكون قد ذاق مرارة الحيرمان في بعض أيامه ، وزاد مرارتها في نفسه ما كان يستشره من المخاوف ، بحسب أن الضئيلة تصمه ، فأثيرت عنه في ذلك بعض القصص ، ثم ضاعفها بالمفنون ، كما أثر عنه فيما قوله :

يلوموني في البخل جهلاً وصلّةً وللبخل خير من سؤال بحيل (٢)
ولقد بدلنا على هذه الشدة التي اجتاحتها ارتداؤه جبة رثة في بعض الأحيان (٣)
واضطرابه أن يخرج إلى فارس للارتزاق على كبر منه (٤).

وكما حاول ركنديون أن يسلب منه ولاية البصرة ، حاول أيضاً أن يخسه فضيلة سبقه إلى تأسيس النحو وتأسيس العربية ، فقال : « وليس حقاً ما يقال إنه واضح أصول النحو العربي (٥) » . وهو يلقي ريبه دون أن يؤيدها بأية حجة أو برهان ، إلا أن المحققين من أساطين العلم اعترفوا لأبي الأسود بسابقتها ، فذكرها له ابن قتيبة (٦) ، والحموي (٧) والذهبي (٨) ، وابن خلكان (٩) ، والياقيني (١٠) ، والسيوطي (١١) ، والبغدادي (١٢) ، وكثير سواهم ، وبينوا دواعي نهوضه بهذا العلم ، كما أشاروا إلى أخذه حدوده عن الإمام علي بن أبي طالب (١٣).

- ١) أبو الأسود الدؤلي رسالة ماجستير في جملة القاهرة ص ٩٦ . ٢) القند الفريد ١٩٦/٦
- ٣) انظر مرآة الجنان ٢٠٥/١ ، وتذكر روايته أن الدؤلي كان يلبيها لعدم استطاعته أن يغيرها . ٤) انظر ديوانه ٢٦٠ . ٥) دائرة المعارف ٣٠٨/١ . ٦) المعارف ٤٣١
- ٧) معجم الأدباء ٣٥/١٢ . ٨) العبر ٧٧/١ . ٩) وفيات الأعيان ٢١٦/٢ . ١٠) مرآة الجنان ١٤٤/١ و ٢٠٤ . ١١) بنية الوعاة ٢٢/٢ . ١٢) خزنة الأدب ٢٨١/١ . ١٣) نزهة الألباء ١٣ ، ومرآة الجنان ٢٠٤/٢ ، ووفيات ٢١٦/٢ .

وقد اختلفت الروايات في سنة وفاة الدؤلي ، وأكثرها على أنها كانت سنة تسع وستين (١) ، وأنه مات في الطاعون الجارف ، بعد أن قُطِع ، وكان عمره حين طاشت روحه خمسة وعشرين حقولاً ، وهذه الروايات ترجّح لكثرتها ما يقال من أنه توفي سنة سبع وستين (٢) ، وتردّ الطبر الذي يحمل موته سنة تسع وتسعين (٣) ، لا لخالفته كثرة الروايات بحسب ، وإنما أيضاً لسكوت شعره سكوناً تاماً عن كل حوادث هذه الفترة ، على حين إشارته إلى كثير من أحداث الفترة التي طارحها ، كما سوف يأتي ، وأيضاً لبا رأبها من تحديد عمره حين وفاته بخمسة وعشرين عاماً ، وكان مرء بنا ولادته في أواخر العصر الجاهلي ، قبيل الهجرة ببسبر ، وإذا لم تقم سنوه المذكورة إلى سنة تسع وتسعين .

وتذكر المصادر أن أبا الأسود قد ترك من عقبه ولده عطاء ، وتسلّك في النجاة (٤) ، وأبا حرب ، ونده في الشعراء المقلا الأمراء (٥) ، وصبيّاً اختصم فيه مع زوجة مطلقة له أمام معاوية وحكم لها به (٦) ، وبقياً كانت تخاف عليه السفر إلى فارس في صميم الشتاء من بعد ما بلغه الكثير (٧) ، وقرية انحدرت من ولده أبي حرب ، كانت تعيش في البصرة (٨).

وظن أن عقب أبي الأسود ولدوا من كلتا زوجتيه : أم عوف القشيرية (٩) وهي التي ذكرنا له بيتين في برها وإكرامها ، وفاطمة بنت دهمي القيسية (١٠) ، وهي التي كان معجياً بها ثم تفرّكتها لما أسنن والثبوت عليه ، وأغلب الظن أن التوجه الذي أدى بها إلى الطلاق والاختصاص من أجل صبيها أمام معاوية ، وأغلب الظن أيضاً أنها هي نفسها أم السكن التي بخرقاً ديوانه بتفكير خلافتها (١١) ، أما المرأة

- ١) الإصابة ٤٣٢٩ ، والاعاني في اللغة ٣٣٩/١٢ ، وإنباء الرواة ٢٠/١ ، والبر ٧٧/١ ، وشعرات الذهب ١١٤/٦ ، ومرآة الجنان ١٤٤/١ ، ومرح السيون ١٥٠ ، ووفيات الأعيان ٢١٨/٢ ، وخزنة الأدب ٢٨١/١ . ٢) نزهة الألباء ١٤ ، ومعجم الأدباء ٣٥/١٢ . ٣) الشعر والشعراء ٧٢٩ ، ومرآة الجنان ٢٠٤/١ . ٤) و (٥) المعارف ٤٣٤ و ٤٣٥ . ٦) تهذيب بن عساكر ١١٣/٧ ومن المحتمل أن يكون هذا الصبي عطاء أو أبا حرب ، ومن المحتمل أن يكون ولداً ثالثاً من أبناء الدؤلي . ٧) الأناظر في اللغة ٣١٢/١٢ . ٨) المعارف ٤٣٥ . ٩) ديوانه ١٤٥ . ١٠) الأناظر في اللغة ٣٣٢/١٢ . ١١) ديوانه من ١١٤ و ١١٩ .

الثالثة التي تزوجها في البصرة (١) ، إلى حين فمن السعيد أن يكون قد ورث منها شيئاً ، وكل ما في الأمر أنها عرضت عليه خطبتها ، وزينت له مواهبها ، فاقترن بها ، فلم تلبث أن : أسرعت في ماله ، ومدت يدها إلى حياته ، وأمنت سره ، ففدا على من كان حاضراً تزويجه فسألهم أن يجتمعوا عنده فقبلوا ، فقال لهم :

أرأيت امرأة كنت لم أبله أناني فقال اتخذني خليلاً
فخالته ثم أكرمته فلم أستفد من لدنه فتبلاً
وأفيتها حين جرّبته كذوب الحديث سروقاً بخيلاً
فألفيته غير مستعيب ولا ذاكر الله إلا قليلاً
ألست حقيقاً بتوديعه وإبّاع ذلك صرماً طويلاً ؟

فقالوا : بل يا أبا الأسود ، قال : تلك صاحبكم ، وقد طلقها لكم ، وأنا أحب أن أستر ما أنكرته من أمرها ، فانصرفت منهم (٢) .

وبطرق ديوان أبي الأسود كل أبواب الشعر ، وبأقوى في مقدمة موضوعاته الحكمة والتساب ، والمهجاء والفخر ، والمدح ، وله قصائد ومقطوعات في الرثاء والوصف والنزل والاعتذار .

وتقضي حكمة الدؤلي في سبيلين ، أولها التربية النفسية والنصائح الخلقية فهو يرسل المواعظ لترتاض النفس على الثقة بالله ، والاطمئنان به ، وابتناء الوسيلة إليه بطيب العمل والمعة مما في أيدي الناس (٣) ، وأن يتوكل المرء - إذا عزم - على ربه ، فلن يصيبه سوى ما قسم له ، ولأه ، ولا يظلمن طيبه الأرض تراثياً الموت ، وتحصنه في بيته منجاة منه ، وتحاميه الشدائد مفرأ من قضاء الله ، فحكه - سبحانه - نافذ ، والموت يدرك الناس ولو كانوا في عقر ديارهم :

إذا كنت مضمئياً بأمرٍ تريد فأل للمضاء والتوكل من مثل

(١) ديوانه ٢٢٢ . (٢) ديوانه ٢٠٢ . وخزانة الأدب ٢٨٣/١ . وأصل أريت : أرايت أي أخبرني ، وبلاء : أخبره ، واستعني : استرضاه . (٣) الخزانة ٢٨٢/١ .

توكل وحمل أمرك الله إن ما تراد به آتيك فافزع بذئ الفضل
ولا تحسبن السير أقرب للردى من الخفص في دار المقامة والشمل
ولا تحسبنني بأبنتي عز مذهبى بظنك إن الظن يكذب ذا العقل
وإني ملاق ما قضى الله فاصبري ولا تجعلي الملم المحقق كالجليل
وإنك لا تدرين : هل ما أخافه أبعدي يأتي في رحيلي أم قبلي ؟
وكم قد رأيت حاذراً متحفظاً أصيب والفتنة المينة في الأهل (١)

ويحت أبو الأسود أن يتبدل المرء إذا أحب ، فلمله يميل عن يتزع إليه فيجفوه ، وأن يتبدل إذا ابغض فقد تبيت مودته لمن هجره فينكفء إليه ، وأن يؤثر الحلم ويصفح مما ساء بفرط من صاحبه (٢) ، ويدعو إلى المبرة والوفاء ، ويبنه الإنسان حتى لا يصني إلى كل وشاية تلبسه ، ولا نسق منه مقالة عملي تذيب بين الناس فلا يملك أن يتفادها (٣) ، وينصح بالصدق (٤) ، ويحمد الصبر (٥) ، ويذم الحد (٦) ، ويهدي إلى اصطفاة الاصدقاء فلا يخال المرء لثيماً قلبي الرأي نعيم المطمئة :

لا تواج الدهر جنباً راضعاً ملهب الشد سريع المنزعة
ما ينل منك فأحلى منم ويرى ظرفاً به أن تمنع
يسأل الناس ولا يطمعهم هبلته أمه ما أجشمة (٧)

وزين الدؤلي فضيلة المرة ، ويحبها إلى النفس ، فهي قيمة جلية ، من يفقدها يتحط ، ومن يصب منها حظاً يرتفع ذكره ، ويمل قدوره ، إنها ذخيرة

(١) الاغانى « الثغاة » ٣١٢/١٢ ، وكان أبو الأسود أراد الخروج إلى فارس فالتت له ابنته : يا أبت إنك قد كبرت ، وهذا صبح الشتاء ، فانتظر حتى ينصرم وتلك الطريق آتياً ، فاني أخشى عليك ، فقال الايات : انظر الصدر السابق وصفته . وقلة : أظلمه وسفاه

(٢) انظر ديوانه ١٣٨ . (٣) ديوانه ١٩٨ وانظر ١٢٢ (٤) ديوانه ٢٠٠
(٥) مجمع الأدياء ٣٨/١٢ (٦) ديوانه ٢٣٢ (٧) ديوانه ١٢٢ ، والجيس : اللحم ، وجبته : نكته .

ثمين وقرين حميم (١).
 أما السبيل الثاني الذي تجري فيه حكمة الدؤلي فهو الميسر المستنبطة من تجارب الأيام، والمستخلصة منها قواعد نيرة، وفوائد قيمة، وذلك مثل أن ينهي عن الخمول الآمل بالحياة في ظلال التمني، وبرود الكسل، والظن بأعطيات القدر دون أن يقدم بين يديه السعي الجليل (٢)، ومثل أن يبين حق المجتمع على أبنائه من الجود بالمال لهم، وإبشارهم لا الاغراء بهم، وكلياتهم لا اغتيابهم، فكيف يسبغ أن يجرحهم ثم يقابلهم وم سياجه وهو دعاهم (٣):

إذا كنت ذا مالٍ كثير فجدِّبه فإن كريم القوم من هو بأذلي
 وقومك لا تحمل عليهم ولا تكن بهم هارشا فتناهم وتسايل
 فما ينهض البازي بغير جناحه وما تحمل الساقين إلا الحوامل (٤)

وتتابع حكم الدؤلي في هذا السبيل فإذا الذي بأبي الصفيح عن إسائة الآخرين بنأى عنه الاصدقاء وبصبح وحيداً فريداً (٥)، وإذا الناس يكتلون مجد الموتى منهم فينسبون إليه كل سالحة، ولو لم يفسلها، ويحملون على الشقي فيقدفونه بكل صرّة ولو كان بريئاً منها:

المره يسعي ثم يدرك مجدده حتى يزين بالذي لم يفعل
 وترى الشقي إذا تكامل غيبه يرمى ويقذف بالذي لم يعمل (٦)

وقد نقد أبو الأسود من هذه العبر أو القواعد الخيرة المرئية إلى آيات تصلح أن تضرب أمثالا سائرة، انظر إليه يقول:

لا تحمدن اصراً حتى تجربته ولا تدمنه من غير تجريب (٧)
 أو يقول:

(١) معجم الادباء ٣٦/١٢ - (٢) المصدر السابق -
 (٣) حاسة البحتري ٢٤٥، وعجل عليهم: يهري بهم، وهرشه: لسهه أو عضه، والحول: الأرجل.
 (٤) تهذيب ابن عساكر ١١٥/٧ - (٥) ديوانه ٢٣٨ ونسباً إلى الثاني في مناقب الرازي ١٩٨، ومناقب البيهقي ٩١/٢ - (٦) حاسة البحتري ٢٣٣ -

فحمدك المرء ما لم تبله سرف وذمك المرء بعد الحمد تكذيب (٨)
 أو يقول:

فلا تطمئن في مال جار اقربه فكل قريب لا يئال بيمد
 وفوض إلى الله الأمور فإلهه روح بأرزاق عليك جود
 ولا تشمرن النفس ياساً فإنما يعيش مجدداً عاجز وجليد (٩)

وإلى جانب الحكمة كان لأبي الأسود عتاب كثير، وترد كثره أشماره في هذا النرض إلى الفترة التي اعتزل فيها منصبه، وصار يستشعر أحزاناً مخصّة، وحاجة إلى عون أصحابه، فمن استجاب له منهم مدحه، ومن زدد طابسه، ومن تشكر هجاءه، ومن هؤلاء الأصحاب أبو الجارود سالم بن سلفة الهذلي، وكان يقارض أبا الأسود الشعر، ثم ولي ولاية، وانشغل بها عن صديقه القديم، فتابه الدؤلي (١٠)، وتساءل عن الوسيلة إلى تلافى ما وقع بينهما، ويثن عجزه من فاحيته، فقد حاول إصلاحه بالصمت كما قد حاول إصلاحه بالبيان، فتاب وانتقد، وأثنى واستمع، فلم يجده ذلك كله، وانسدت من دونه السبل، إلا سبيل الفراق الجليل (١١).

ومن الغريب أن أبا الجارود عدّه معاتبه الدؤلي انتقاماً له ومدته، وكتب إليه بذلك، وأخبره أنه لا يتغير على صديق له ما لم يتغير هو، حتى لو زل ذلك الصديق احتمله ولان له (١٢).

ولما بلغت آيات أبي الجارود أبا الأسود صعب وقصها عليه واستأنف بماتبه ويؤكد له إنما أراد معتبه لا مدمته، ثم أخذته العزة بكرانه، فلوّح له بقوته وصلابته أمام الأعداء، وطاف في آحر رسالته الشعرية إليه يستعطفه بماتبه وكيف قدّم عليه الأبدن، ويستفيد بالله من أن يقع هو أو أبو الجارود في منقصة:

أبلغ أبا الجارود عني رسالة أفي كل قول قلت أنت آخذ

(١) المصدر السابق ٢٣٣ - (٢) ديوانه ٢٢٧
 (٣) ديوانه ١٢٤ - (٤) ديوانه ١٢٦ -
 (٥) انظر ثلاثة آيات لأبي الجارود في ديوان أبي الأسود ١٢٧

أمنك فوافٍ قد أتيت كأنها
على غير شيء غير أني معاتبٌ
فإن كنت حقاً أنت لا بد آخذ
ريثاً نصيباً مسلماً ذا قرابة
أولئك خلأت سيمناً جاني
وخلفتي بمد الألى كنت قبلهم
فدونك إني قد نطقت قصيدة
فقل ما أراك الله إنك راشدٌ
كلانا من المواء بالله عائدٌ (١)

ومن الولاة الذين طابهم الدؤلي الحسين بن الحر المنبري عامل عبيد الله بن زياد على ميسان؛ وكان من قبل له صديقاً، فبث إليه بكتاب استهداء، ولكنه اشغل عنه بالبيعة والولاية، ومنذ ذلك الحين بدأت رسائل الكتاب تدورك تترى من أبي الأسود، وتتمه بالتحول منه والافتداء بغيره عن فعلوا برى الحق وتناسوا المودة (٢) أو ترميه بالفضانة (٣)، أو توعدوه بأمر الهجاء (٤)، ومن أصحابه الولاة أيضاً عبيد الله بن عامر، ويخبرنا ديوان أبي الأسود بجفافتهما وانصرام ودعهما، وإشثار وعناظ البصرة سابقاً، البمد الصريح على القرابة المتكررة (٥)، ومنهم عبيد الله بن زياد، وكان يمدد بقضاء ديونه عنه ثم يطله ويلوبه، فقال:

دعاني أميرى كي أقول بحاجتي
فقلت، وما ردد الجواب وما استمع
فقلت ولم أحسن بشيء ولم أصن
كلامي وخير القول ما صين أوقع

(١) ديوانه ١٢٧، والقرار: اللامعات، والناخذ: العرس، والإخاعة: التدبير، والإخاعة: مقبض الجيفة، وهي العرس من جلد، ويريد حامليها أي القاتلين، والجهيد: الناقد البصير، وملاوذ: يلوذ بضمه يبيض، أي مترامة متفحة الأحكام، والموراء: المنفعة. (٢) ديوانه ١٤٠. (٣) المصدر السابق ١٤١. (٤) المصدر السابق ١٤٣. (٥) المصدر السابق ١٥٨.

فأجهدت يأساً لا ثباتاً بسده
ولليأس أدنى للعفاف من الطمع (١)
ومن طابهم الدؤلي - إلى جانب الولاة - بعض جيرانه الذين سبهم منهم
أدى (٢)، وبعض خلطائه في التجارة (٣)، وصديق له اختصم إليه مع رجل آخر،
وكان وجه الحكم مع الثاني فحكم له على صاحبه، فلامه، فدافع أبو الأسود عن
موقفه (٤)، وزوجته فاطمة التي تنكرت خلافتها له والتوت عليه (٥).
ويمكن القول إن "فن" الكتاب عند أبي الأسود يجري في أربعة طرائق:
الأول أخذ صاحبه بالرفق واللين وبمجانبة ما قد يقع بينهما من خلاف يأتي هي
أحسن، ومن ذلك قوله لصديق له كان صاحب إبل وإقحاح، فساومته أبو الأسود
في ثافة منها، فقال صاحبه: أنكسرهما علي يا أبا الأسود وقد نعلم أنك لست أبصر
بها مني ١٩ هذا لمعرك مخالفة منك فقال:

أبي صاحبي بذلي ويصي كليهما
هو المرء يستنني ويحمد صاحبه
فقلت وبمض الظن يكذب أهله
ويصدقهم وأكثر الظن كاذبه
لعل أخي لما رأى حسن شيمتي
وليني إليه ظن أني أواربته
وكنت امرأة - والحمد لله - لا أرى

أخي وخليلي كالبعيد أخالبه
وأعطيت حفظاً من حياه وأشتكي

من العجز من لم يبند للناس عائبه (٦)
فهو ينهه إلى الظن وما قد يؤدي إليه من خطل الأحكام، ثم يردف
إليه بمخاطب الأخوة ويذكر برأته من المواربة، وما أوتي من شمائل طيبة وحياء

(١) تهذيب ابن عساكر ١١٥/٧. (٢) ديوانه ١٧٠ و ١٧١ و ١٧٢. (٣) المصدر السابق ١٧٢. (٤) المصدر السابق ٢٠٩. (٥) المصدر السابق ١١٤ و ١١٩ و ١٥٨ و ١٦٠ و ١٦١. (٦) ديوانه ١٧٢، والمواربة: المخادعة.

محمود، ويستطفه بما أصابه من الضعف من ناحية، فيذكر الضعف الذي أصابه من ناحية وعن صاحبه من ناحية أخرى. والطريقة الثانية هي التلميح، وفيه يذكر ما أخذ صاحبه، دون أن يوجهها إليه توجيهاً مباشراً وذلك كقوله لبيداه بن عامر:
 وعد من الرحمن فضلاً ونعمة عليك إذا ماجاه للعرف طالب
 وإن امرأة لا يرتجى الخير عنده

يكن هيناً ثِقلاً على من يُصاحب (١)

فهو يرسل حكماً عامه «أن يتذكر كل ذي فضل آلاء ربه عليه إذ رفته إلى مرتبة المقصودين، وأن يسخر فلا يشح، فإنه - إذا لم يكن مرتجى خير - سقط من الأعيُن واستثقل، وما من شك أن ابن عامر أول من يعلو أن أبا الأسود قد قصده بمحاجته، وأنه لم يمينه عليها

والطريقة الثالثة: اللمز والتذنيب، وفيها يقسو على من يعاتبهم، ويبيدي لهم امتنازه وانتقاده بجلاء، ويبين سوء عملهم، وفساده من لقمهم، ومن ذلك قوله لسديق أزدي له كان أبو الأسود قد أمره إليه برغبته أن يخاطب امرأة من عبدة القيس، فنقل الأزدي الخبر إلى ابن عم لها، وكان يريد لها، فأشرع فيها وخطبها من دون أبي الأسود:

لمعري لقد أفشيت يوماً فخاني إلى بعض من لم أخش، سرّاً ممثماً
 فزفقه حرق العسى وهو غافل ونادى بما أخفيت منه فأصمماً
 فقلت ولم أفحش، لملك عارٍ وقد يثر الساعي إذا كان مسرماً
 ولست بجازيك الملامة إني أرى الفؤ أدنى للرشاد وأوسماً (٢)

فهو يتهمة بغيانة سره وإفشاء أمانته، وإن كان ذلك بفضلة منه لا بمكر فيه. والطريقة الرابعة: التهديد بقصم هوى المودة ونكث أوامرهما، وذلك مثل قوله لبيداه بن عامر:

(١) ديوانه ٢٢٩ - (٢) ديوانه ٢٠٦

- ٢٥٦ -

ألم تر ما بيني وبين ابن عامر من الود قد بالت عليه الثالب
 وأصبح باقي الود بيني وبينه كأن لم يكن والدهر فيه عجائب
 إذا المرء لم يحببك إلا تكرهاً بدا لك من أخلافه ما يقالب
 فلأنأي خير من مقام على أذى ولا خير فيما يستقل المعائب (٣)

والآيات، كما هو واضح، قريبة جداً من الهجاء، ولو كانت لمزت شخص ابن عامر ببعض الصراحة لسلكها في النرض الأخير، وذلك أن من ضروب الهجاء عند أبي الأسود ما كان في بدايته عذلاً وملازمة، غير أنه ما لبث أن استقرى فتحوّل ذماً وزرابة، ومن أمثلة هذا اللون المقطوعة الأولى في ديوانه، فهي تناب والي جسي وأصحابه وكان من قبل صديقاً لأبي الأسود، فلما أتاه جعاه، وفي مطلع الآيات يخاطبه بمقام الاخوة ثم يذكر تناسيه له في اليعاد، وسأته منه عند اللقاء ثم يكشف جموده ما تر أصحابه ثم يزري عليه ضلاله وإضلاله فهو ينتكب السبيل القويم، ويتخذ سبيل النواية بل يهدي إليه، وبذلك يتقلب السبب هجاءً فادحاً:

تروّحت من رزداق جسي عشيّة وفادرت في رزداق جسي أخاً لك
 أخاك إن طال الثنائي وجدته نسيّاً وإن طال التماشُرُ ملكاً
 ولو كنت سيفاً يُمنجِبُ الناسَ حده فكنّت له يوماً من الدهر قللاً (٤)
 ولو كنت أهدي الناسَ ثم صحبتته فطاوَعْتَهُ صلّ الهدى واصنكاً
 إذا جثته تبني الهدى خالف الهدى وإن جرّت عن باب النواية دلكاً (٥)

ويتستحوذ الهجاء النفسي الخلفي على جملة آثار أبي الأسود في هذا النرض فهو يجتنب الضلالة - كما في الآيات المقدمة - ويذم متعاطي الحمر ويرميه بالضلال (٦) ويحمل على أصحاب الخيانة والمواربة والكذب والتلويح (٧)، ويشتغ على الخوارج ويسكت

(١) الاغانى «الثقافة» ٣٣٩/١٢ - (٢) لبيت سنيان، أولها أنه يضط أصدقاءه فقلهم ويحمد ما ترثم، والثاني أنه يجوز عليهم حتى يرميهم. (٣) ديوانه ١٠٩، والرزداق: السواد واقري مررب رستا، وقلة: قلة. (٤) ديوانه ١٨٩ - (٥) ديوانه ١٦٦

الفتقاء م ١٧

- ٢٥٧ -

قصة الحاقدين . يقول في سائر هزأة حاول أن ينال منه :

وأهوج مبلجاج تصامت قبيلة
ولو شئت قد أعرضت حتى أصيبه
فإن لساني ليس أهون وقعة
وذي إحنة لم يبديها غير أنه

كذي الخبل تأتي نفسه غير ومواس

صفت له صفحا جيلاً كصفحه

وعيني - وما يدري - عليه وأحراسي^(١)

وما بلقاء في الهجاء عند أبي الأسود القحح السياسي إذ يهجم الامويين
بارسانهم في سفك دماء الشيعة وحجب الخير عنهم^(٢) ، ويرمي بني زياد بالنذر والخبائة
ويدعو الله ان يزيد ملكهم^(٣) ، ويطعن في الخوارج ويؤذي عليهم نواقصهم^(٤) .
وأكثر هجاء اللؤلؤي ثم مباشر متصارع ، وغفل لذلك بأبياته السابقة في
والي جي وأصحابه ، وفي السائر الهزأة ، وقد يملك سبيل التبرهن كقوله عندما
مطله هيدالله بن زياد :

ألم تر أني أجمل الوأي ذممة

أخو النذر عندي ووغه المرء بالوعده

وما رجل لا يقيني بكلامه
بعوف بميثاق عليه ولا عهد^(٥)

فهو بعد الوعد ذممة تحتاج إلى وفاء ، فمن راغ فيه أو شك أن يكون مع
القادرين ، بل هو شقيق لهم حميم ، ومن لا يفعل ما يقول فليس ينتظر منه ميثاق

(١) الأمان (التناهي) ٣٠٧/١٢ ، وحديده : صبه شديدة ، وتعزل بالآسي : حمير
الداوي ، والاحنة : الضئيلة . (٢) مرآة الجنان ٢٠٦/١ . (٣) انظر ديوانه ٢٤١ .
(٤) ديوانه ١٩٤ . (٥) ديوانه ١٦٨ ، والوأي : العهد .

ولا وفاء هود ، والشاعر لا يخاطب ابن زياد في صغيرة ولا كبيرة غير أنه لم يكن
يخبره عليه مراد أبي الأسود .

ومن سبل الهجاء عنده أيضاً السخرية الفنية إذ يرسم ان يكتنه صورة
طريفة أو مضحكة ، كأن يمرض هيئته وهو يتحدث ويخلج حاجبيه تماثلاً^(١) ، أو
يجعل له صورة الأسد يرعد ويزار بيئنا يتطهر الهولي بالرعب منه ، وكأنما هو
مورده القتل أو ما هو أشبه بالقتل^(٢) .

ويبدو أن مواقف اسدقائه التنكريين كانت تدفعه إلى تذكيرهم بسوابقه في
الخير ومآثره في الحماد ، فيفتخر بذلك عكس يخفف عن نفسه وطأة محنته لهم ، ومن
يقرا موضوع الفخر في هوان أبي الأسود يجد فيه تعاليم من القيم ، النمط الأول
معايير قديمة استمرت في الإسلام ، كفضيلة الشمر ، ومهارة البيان^(٣) ، والزمية
الجليلة ، والشجاعة^(٤) ، وإتقان المصاولة^(٥) ، والنمط الثاني قيم جديدة تعتر
باعتناق الإسلام وإسداء النصيحة^(٦) ، كما تجانب الخي والجبل ، وتعود منها بالدين
الحنيف والحياء والطف والكرم :

وإني ليشنيني عن الجبل والخي وعن شتم ذي القربى خلائق أربع
حياء وإسلام ولطف وأني كريم ، ومثلي قد يضر وينفع^(٧)
وعلى هذا النحو يفتخر أبو الأسود بهربه اللين الحلال لا الحمر وما فيها
من إثم وطار :

إن امرأً نبتت عن صديقنا يسائل هل أسقي من اللبن الجاراء
وإني لأسقي الجار في عقر بيته وأشرب ما لا إثم فيه ولا عارا
شرباً حلالاً ينزل المرء صاحياً ولا يتوالى يقليس الإثم والمارا^(٨)

(١) ديوانه ١٣٢ . (٢) ديوانه ١٩٠ . (٣) ديوانه ١٢٩ و ١٥٥ .
(٤) ديوانه ١١٥ وما بعدها . (٥) ديوانه ١٣٤ . (٦) ديوانه ١٢٨ و ١٥٠ .
(٧) ديوانه ١١٩ . (٨) الأغانى د التناهي ٣١٩/١٢ وفيه ٥ كان لأبي
الاسود جار يحمده وتبغته عنده ثوراس ، فلما باع أبو الاسود داره في بني الدليل وانتقل الى هذيل =

وبدور مديح أبي الأسود حول أصحابه الذين برّوه ولم يضمنوا عليه ، ولم يتنكروا له ، ومنهم أبو مازن والي جبدة بن زياد على 'جند' يسابور ، وهو يشيد بترحيبه فيه ، وقضائه حاجته (١) ، ومنهم النذر بن جارود وفيه يقول :

كساني ولم أستكسبه فحمدته أخ لك يعطيك الجزيل وناصر
وإن أحق الناس إن كنت حامداً

بحمدك من أعطاك والمرض واقف (٢)

ومن هؤلاء أبو بحر عبدالرحمن بن أبي بكرة وهو يثنى بكرمه وخبره ، ووفائه ورحمته وحسن شيمه (٣) ، ومنهم بحير بن ريسان الجيري وكان قد جاء إليه وقال له :

بحير بن ريسان الذي ساد حميراً بأفصاله والدائرات تدور
ولاني لأرجو من بحير وليدة وذلك على المرء الكريم يسير

فقال : يا أبا الأسود سأنتنا على قدرك ، ولو سأنتنا على قدرنا ما رضينا بها لك (٤) . وقد بني لأبي الأسود عدة مقطوعات في الرثاء ، وهي مقطوعات بارعت تشي الإمام علي بن أبي طالب (٥) وابنه الحسين (٦) ، وشهداء الطف (٧) ، وأبيات أخرى في وصف الصحراء (٨) والناقة (٩) ، والطريق الحرف (١٠) ، والتهيب (١١) ، وخمسة أبيات في الاعتذار (١٢) ، أو في النزول (١٣) .

= قال جاز أبي الأسود لبعض جيرانه من هذيل : هل يتبكم أبو الأسود من ألبان لقمه ؟ ، وكانت لا تزال عنده لقمه أو لفتان ، وكان جاره هذا يصيب من المرائب ، فبلغ أبو الأسود قوله ، فقال فيه :

« إن أسره ... » ويقطع : يخرج من حلقه امتلاء ، والفتنة : الناقة الحلوب الغزيرة اللبن .
(١) ديوانه ١٦٤ . ٢ (ديوانه ١٩٣ وكان للنذر رأى عليه برداً مأهلاً نياً وكسوة .
وقال البرد ان الذي أعطاه أما هو عبيد الله بن زياد « السكامل » ٣٤١/١ ، وقيل بل هو عبيد الله بن أبي بكرة ، وفيها ٢١٧/٢ . ٣ (ديوانه من ٢٠٤ . ٤ (تاريخ مدينة دمشق لابن عساکر « دار الكتب » ٥١٠/١٨ . ٥ (تاريخ الخلفاء ١٨٦ . ٦ (ديوانه ١٨٠ .
٧ (ديوانه ١٨٢ . ٨ (ديوانه ١١٥ . ٩ (المصدر السابق ١١٦ . ١٠ (المصدر السابق ١١٢ .
١١ (المصدر السابق ١٩٥ . ١٢ (المصدر السابق ١٢٠ و ٢٢٠ و ١٣ (المصدر السابق ١٤٤

والناظر في ديوان أبي الأسود ، من الوجهة الفنية ، يجد أكثر ما فيه مقطعات شعيرات وأقلام قصائد قصاراً ، وكذلك يجد كلنا الزعتين اللتين تقسمان شعر الفقهاء : النظم ، والابداح الفني ، ويشجل النظم بوضوح عندما يتطرق لتجارته التي مارسها بعد تسخيته عن الولاية فيقول :

يريد وفاق ناقتي ويعيها يخادعتني عنها وفاق بن جابر
فقلت : تعلم يا وفاق بأنها عليك جيمي أخرى الليلي الغوار
بصرت بها كومة حوشاء جلدة

من الموليات الهام جيد الظاهر (١)

فإذا استحسن لأبي الأسود غضبه من طريقة الماكسة التي سلكها ولا حين سار بتلجلج وتلوي وبماول أن يلحق بالناقة عيماً مديراً ليخسر ثمنها (٢) ، فقد كان خيراً ألا يمالج مثل هذه القضية في الشعر ، حتى لا يحوّل ضرباً من الماكسة : « يريد ناقتي وبسبها ، ويخادعتني ، عليك حمي » ، أو ترويض السباع وكأنها يتنادى بها في سوق الأبل « كومة ، حوشاء ، جلدة » ، ولعل من الواضح أن المدح في كومة وحوشاء يدين على النداء البمد المدي ، بينما تصلح « جلدة » أن تتكرر ، كما يفعل الروجون المسلمم ، فيحدث لها التكرار - إذا كان ثنائياً - تناغماً مع الكلمتين الأوليتين .

وتكرر هذه الظاهرة في ديوان أبي الأسود ، إذ يمرض في مواضع أخرى بماكسة أوس بن عامر له في ناقته « الطيفاء » (٣) ، كما يمدح صفقة شراء بقلة من مهران مولى بن عامر (٤) . . . وما من شك أن استعراض أحداث السوق في ميدان الشعر غالباً ما يصمم بالإبدال .

وكما يتجلى النظم في ديوان أبي الأسود عند أحداث التجارة يتبدى في

(١) المصدر السابق ١٠١ وحمي : ممنوعة ، وكومة : عظيمة السنام ، وحوشاء : جيدة الاكل ، والظهار : جمع طهيرة وقت انبصاف النهار . ٢ (انظر مقدمة الأبيات من ١١٠ في ديوانه ٣ (ديوانه من ١١٣ . ٤ (المصدر السابق ١٤٦ وانظر أيضاً أحداث البيع والقرء من ١٦٦ و ٢١٢ من ديوانه .

موضوعات متفرقة أخرى لا يشمر فيها القارىء بنبض الشاعر ولا بلطافة الاحاسيس
ولا ببراعة الصور ، ولا بحسن الكلام مرصوف رصفاً ، وذلك في نحو قوله
في الهجاء :

يصيب وما يدري ، ويخطي وما درى

فكيف يكون التوكُّ إلا كذلكا

وإن قال قولاً لم يكن ذا حقيقة

وإن قلت قولاً رده من فعالكا^(١)

أو قوله :

تقولُ فمن يسمعُ يقلُّ أنت فاعلٌ ومن دونه بابٌ من الشَّحِّ مُقْفَلٌ
«نعم» منك «لا» معروفة غير أنها تفر فيرجوها الضيف المقتل
فقل «لا» ولا تعرض لها، أو «نعم» ولا

قل «لا» إذا ما قلتُ إني سأفعل

لمعري «لا» خير إذا كنت باخلاً وأروحُ من قولٍ «نعم» ثم تخطل
وإن قلت «لا» وهي غير خفيفة عليك فلأخرى أشد وأقلُّ

إذا هي لم تنفَّذْ بصدقٍ ولم تكن إذا اختُبرتْ إلا الضلالُ المضللُّ^(٢)
فقد يحسن التكرار في مواطن كثيرة ، إلا أن كل المواطن الشعرية البارحة

تأبى «وما درى» بعد «وما يدري» في البيتين الأولين ، ولو استبدل ببارحة كلمة
«جهالة» أو «ضلالة» لبرأها السهجة والاستفحال. أما «نعم» و«لا» الكلمتان
المتلاعبتان بزمام النص الأخير فربما كانتا نقيضان الترحيب في مسائل التعرُّب النحوي
أو الألفاظ المنوية ، غير أنها في مضمار الشعر تموتان انطلاقته وتمرقلان السبيل.

(١) المصدر السابق ١٢٧ ، والنوك : الخلق .

(٢) المصدر السابق ١٦٦ و ١٠٠

وتقيدان ما كان بدونها سهلاً رهوياً ، وما كان التقييد في شيء إلا شانه .
وقد يحسن الإغراب في الشعر أحياناً ، ويضفي عليه جزالة وجلالاً ، ولكن
افرا قوله في رجل وعده شيئاً ثم زعه :

ذهبت وكان المرء يُبْئلي ويُبْئلكي أطالع ما قال المُجبرُ بن مالكِ
فلم أر إلا هَيْجَجَ رِيحٍ تقطعت أعاصيرُ في أرضٍ سَمُوبٍ مِهَالِكِ
فلا ذنبَ لي لو كنت أضطرَّ ضيعتي

إلى جُؤولٍ رسٍ من حجابٍ متماسك^(١)

وواضح مقصوده من البيتين الأولين أن أبهة المُجبرُ إن هي إلا مثل ربيع
عائجة لم تحمل النيث ولم تنفع الناس ، أما البيت الثالث فهو يحمد القارىء أمام لقر
معنوي حقاً ، فالجؤول - بالفتح - التراب والقيار ، والرس البئر المطوية الحجارة ،
فقد يريد أنه غني عن تراب البئر المتماسك ، لأن التراب لا ينفصه شيئاً ، كما أن
حصوله عليه غير هين ، وبذلك يبيد صورة الريح غير النافمة وإصابتها - مع قلة
نقما - الفلوات لا الواطن . على أن الجؤول أيضاً الطواف . فن المحتدل أنه يقصد
إياه الطواف حول بئر شبيحة تمسك المياه ولا تسقيها ، وكذلك فإن الجؤول بالضم
الزرم والمقل ، والرس الإصلاح ، فهل يعني استغناءه عن المزيمة العالحة التي أبدأها
المجرُّ لأن الإمساك وقفها عن الجؤود؟ مهنا يكن فإن البيت لم يستطع - لتمقيده
وغرابته - أن يعبر في دقة عن مراد أبي الاسود ، وبقي «النسب في قلب الشاعر» .

وأغلب الظن أن الناقدين الذين جرَّحوا شعر أبي الاسود وأنضوه انكؤوا
على مثل هذه الأبيات ، ثم طسوا عليها ، ثم عمموا الحكم فقال بروكلمان : إن
وشعر أبي الاسود ليس على مستوى رفيع من الوجهة الفنية ، كما أنه لا يقدم
عشماً تاريخياً جديراً بالذكر في احوال عصره^(٢) ، وذهب ركنندورف إلى أن

(١) ديوانه ١١٤ ، والميج : البيجان ، والسهوب : الأرض للتوية ، وسهوب الفلاة :
نواحيها التي لا مسلك لها ، والمهالكة : الفلاة .

(٢) تاريخ الادب العربي «ترجمة عبد الحليم نجار» دار المعارف بصر ٣٠٧/١ .

اضطاره - عدا قصيدته في رثاء الإمام علي - لا قيمة لها (١)، ونحن لا نستغرب هذه الأحكام من المستشرقين الذين قلنا قدروا أن يتذوقوا الأدب العربي أو يماربوا له، غير أننا نستغرب أن يردد باحثان من أهل الضاد الرأي نفسه، فيقول فتحي الدجني إن شعره - في حد ذاته - لا قيمة له من الناحية الفنية والتاريخية مما (٢)، وبمده ناعماً فقط (٣)، ويرى عبدالكريم الدجيلي محقق ديوانه أن شعر أبي الأسود الذي وصل إلينا لا يصور مجتمعه ويكلمه تصويراً كاملاً، ولا يصلح المشاكل والأوضاع العامة. فهو في الواقع ناظم لا شاعر (٤)، ويرجع قوله مرة أخرى فيقول: «شعره ليس في حد ذاته ذا قيمة فنية، فهو لم يعطنا الحقائق التاريخية لتلك الزمن المليء بالأحداث والتبر والتقلبات» (٥)، ومن الغريب أن يسي محقق الديوان رأيه في فن أبي الأسود على حظه من الحقائق التاريخية، ومن الغريب أيضاً أن يتم هو والنقاد الآخرون شعر المؤلفي بضالة تصوير الأحداث المعاصرة، مع أنه يجبرنا بما وقع من خلاف بين الإمام علي من جهة وبين السيدة عائشة وطلحة والزبير من جهة ثانية (٦)، كما يسجل حركة الخوارج (٧) وخلافة مساوية وبني أمية (٨)، وحكومة بني زياد في العراق (٩)، ومقتل السبط (١٠)، والشقاق عبدالله بن الزبير وإبلائه البصرة للحارث بن عبدالله الملقب بالقباع (١١)، وتلك كبريات الحوادث في أيام أبي الأسود.

ومن يقرأ ديوانه ير إلى جانب هذه الحوادث وقائع تاريخية أخرى (١٢) إضافة إلى ما يصوره من أمور الدولة الخاصة به (١٣)، إلا أن ديوانه لم يؤرخ لكل ذلك تأريخ البيهقي أو الطبري أو الدينوري أو البلاذري أو ابن قتبية، أو أبي الفرج أو ابن عبد ربه أو المسودي من فصلوا القول في تلك الحوادث ونقلوها عن

١) دائرة المعارف ٣٠٧/١ - ٢) أبو الأسود ١٧٧ - ٣) المصدر السابق ١٢٨
٤) مقدمة ديوان أبي الأسود من ٣٢ و ٣٣ - ٥) المصدر السابق من ٣٢
٦) ديوانه ٢٣٠ و ٢٣٨ - ٧) ديوانه من ١١٤ - ٨) ديوانه ١٧٤ و ٢٢٠
٩) ديوانه من ١٦٧ و ١٦٨ و ٢١٩ و ٢٢٢ - ١٠) ديوانه ١٨٠ و ١٨٢
١١) ديوانه من ٢٢٠ - ١٢) انظر طائفة من الولاة الامويين والحوادث التي جرت بأبوابهم في ديوانه من ١٠٩ و ١٢٢ و ١٢٤ و ١٢٦ و ١٢٧ و ١٢٣ و ١٣٥ و ١١٠ و ١١١
١٣) انظر بعض أماله وأصحابه وجيرانه وأزواجه =

مصادرها الأولى التي اقتدناها، ولكن هل على الشعر ان ينقلب بحسباً وتأريخاً وتفصيلاً؟ وهل قمل ذلك من الشعراء أحد فننضم أبا الأسود من دولهم ١٢ وإذا انتقلنا إلى تصنيفهم الحكم على شعر أبي الأسود وحرمانهم له من القيمة الجمالية رأينا الجانب الآخر من قريضة، وهو جانب الإبداع الفني يرد هذا التصيم، ويدفعه بحجج خمس:

الحجة الأولى: ما يحويه من بعض المقطوعات الماطفية النادرة، ويأتي على رأسها قوله في السحاب:

مَنْ ذَا الَّذِي بِإِخَانِهِ وَبِوُدِّهِ مِنْ بَعْدِ وَدِّكَ أَوْ إِخَانِكَ أَفْرَحُ
لَمَّا يَقُولُ الْكَاشِحُونَ لَنَا غَدًا وَعِيُونُهُمْ نَحْوِي وَنَحْوِكَ تَلْمَحُ
قَدَرِ ابْتِهَامِهِمْ مِنْ بَعْدِ حُسْنِ تَوَاصُلِ مَنَا مِبَاعِدَةٍ وَبَيْنِ مَفْصِحِ
أَمْرِهِمْ مَا يَشْهَوْنَ وَفَاعِلُ مِنْ ذَلِكَ مَا يُثْنَى وَمَا يُسْتَقْبِحُ
أَمْ مُمْسِكِ بَوِصَالِ خَيْلٍ نَاصِحِ نَحْنُ الْأَخْوَةَ مِثْلَهُ لَا يُطْرَحُ
أَيَا فَعَلْتِ فَلَا تَزَالِ مُعِيمَةً فِي الصَّدْرِ مِنْكَ مَوْدَةَ لَا تَبْرَحُ (١)

والحجة الثانية ما فيه من تصور دقيق لآفت في بعض المواضع، كصورة الكاشحين في الأبيات السابقة وم يرسلون النظرات إلى الصديقين الخيميين عليها تكشف لهم أسباب الشقاق، وكصورة الخامة الساجدة في فروع الأبيك، وقد حرت بنا في الإبداع الفني في شعر الفقهاء، وكرسم صورة طربز مخوف، يكتبه من أحد جانبيه أكمة وهررة، ويحف به من الجانب الآخر طابة كثيفة، وهو يتلوى بينهما

= وجوابه: ديوانه من ١١١ و ١١٣ و ١١٤ و ١١٩ و ١٢١ و ١٢٤ و ١٢٥ و ١٤٦ و ١٥٣ و ١٥٨ و ١٦٠ و ١٦٣ و ١٦٦ و ١٧٠ و ١٨٧ و ١٩٤ و ١٩٥ و ٢٠٢ و ٢٠٤ و ٢٠٦ و ٢٠٩ و ٢٢١ و ٢٢٤ و ٢٤٠ - ١) حاسة البحرني ٢٥٩ وانظر قصيدته في رثاء الإمام علي في تاريخ الخلفاء ١٨٦، إلا أن هذه القصيدة الأخيرة منسوبة أيضاً إلى أم الهيثم بنت الأسود النخبية، انظر مقال الطالبيين لأبي الفرج (النجم ١٣٠٣) من ٢٩، ولهذا لم أررها.

في ضيق شديد دون أن يكون ثمة طريق سواه ، وعلى صفحة ذلك الدرب كانت تقبدي آثار الأسود وسائدها ، ولا يلبث الساء حتى يحل فيخيم على الطريق الوحش المنفرد القلبي بين الجبال العالية والنايات المكتظة ظلة رهيبه دامسة ، وهناك يأتي هبور أبي الاسود :

وخلّ مخوف بين ضرسٍ وفأبةٍ ألفٌ مضيقٍ ليس عنه مجنّبٌ
كأن مصامات الأسود بيطنه مراعٍ وآثار الأراجيل ملعب
سلكت إذا ما جنّ نفرَ طريقه أنعمٌ دجوجي من الليل غيبٌ^(١)
والحجة الثالثة : أنه لا يخرج من السياب شعري متتابع متلاحق سليس كقوله
يمتاب صديقا أثنى له سرا فأذاه :

أمنت امرأة في السر لم يك حازماً ولكنه في النصح غيرٌ مرّيب
أذاع به في الناس حتى كأنه بملياء ناراً أوقدت بثقوب
وكنت متى لم ترع سرك تلتبس قوارعه من خطي ومصيب
فاكل ذي لب بمؤتيك نصحه ولا كل مؤت نصحه بليب
ولكن إذا ما استجمعا عند واحد فحق له من طاعة نصيب^(٢)

وقد يحول الانسياب تدفقاً مصطبجاً بنفحات مروضية بارزة وإيقاعات داخلية متقابلة في نحو قوله :

بليت بصاحب إن أذن شبراً يزدني في مباحدة ذراما
وإن أمدد له في الوصل ذرعي يزدني فوق قيس الذرع باعا

(١) ديوانه ١١٧ ، والحل : الطريق ، والفرس : الجبل ، والمصامة : اللصام والوقف ، والراغ : مكان قمرغ الحيوان ، والأراجيل : الميادون ، ودجوجي : مظلم ومثله غيب ، وانظر صوراً بارعة أخرى في ديوانه من ١٨٦ و ١٨٧ . (٢) المصدر السابق ٢٠٧ ، وانظر المؤلف والمختلف ١٥١ ، والتغريب : عود الثياب ، والنوارع : الدوامي جمع قارعة .

أبى نفسي له إلا انبعاً وتأنى نفسه إلا امتناعاً
كلانا جاهد أدنو ويتأني كذلك ما استطعت وما استطاعاً^(١)
والحجة الرابعة نكبة أبي الاسود في ديوانه واضطراب النسخ المخطوطة منه ، ويبدو هذا الاضطراب في بعض السقطات النحوية والمروضية فيه ، كأن يضطر إلى قطع الحمزة الموصولة في «استقبل» ، فيقول :

وبالصديق استقبل حديثك إنّه أصح وأدنى للتداد وأمثله^(٢)
أو إشباع فتحة النون في ضمير التنكيم المفرد «أنا» لتأخذ مقام الألف ، ومعلوم أنها تكتب ولا تلفظ :

فأنا أطلبه في الناس أنشده يا حبيذاً من مضل غير موجود^(٣)
أو ينطمس فيصير كالمطليشاه المقتونة على هذه الشاكلة :

إذا المتايا الرقي الردى مل أهله نفته الأمور بالرعيش الملبس^(٤)
وقد تبدو نكبة ديوانه بصورة أشد وضوحاً إذا قرنا أشاره فيه بروايات أخرى نقلتها المصادر المتتينة لغير الشعر كالأغاني وإنشاء الرواة وخزانة الأدب... فهو يقول في ديوانه :

أتأني في الطيفاء أوس بن جامر ليخدعي عنها بحن ضرامها
فسام قليلاً بالسا غير ناجز وأحضر نفساً وأقفاً بعكاسها
فأقسمت لو أعطيت ما سئمت مثله

- وأنت حريص - ما غدوت برأسها
أغررك منها عذتها عن حوارها تمذر أم السكن يوم نفاسها^(٥)

(١) خزنة الأدب ١/٤٨٦ (٢) ديوانه من ٢٠٠ .
(٣) ديوانه من ١٩٧ (٤) ديوانه من ١٥٩ . (٥) ديوانه من ١١٣ ،
والحن : الانصراف ، ونجز الحاجة : قضائها ، وعذمتها عن حوارها : دعها عن ولدها .

وانظر رواية الأغاني للآيات :

أنا في الطيفاء أوس بن عامر
ليخدعني عنها مجنّ ضراسها
فسام قليلاً ناساً غير ناجز
وأحصر نفساً وانتهى بكاسها
فأقسم لو أعطيت ما سممت مثله
وضحفاً له كما غدوت براسها
أخرك منها أن نخرت حوارها
لجيران أم السكن يوم نفاها
فولت ولم يطمع وفي النفس حاجة
يردّها مردودةً بأواسها (١)

ورواية الأغاني تفصل نص الموهوب بدمه سوابق ، منها خلق ستر محاسن
الناقة والطيفاء ، من مبالغة صرفها عن صرفها ، ومنها أن الماكس لم يكن بأثماً ،
وإنما كان يحرس أن يكسب الصفة ويؤخر ثمنها ، ومنها أن نفس المرء ليست تفارقه ،
ما دام حياً ، فهي لا تخضّر إحضاراً ، بل قد تخضّر إحضاراً ، ومنها أن تخفيف
الهمز في راسها خير من تحقيقه ، لينظر سائر الألفات في الآيات ، ومنها أن نخره
الحوار ابتهاجاً بولادة امرأته يترك في النفس أثرًا لطيفاً لا انتكاشاً على أم السكن
إذا تمذرت ولافتها (٢) .

والحجة الخامسة أن النقاد الأولين قدروا شعره واستحسنوه ، وذلك بعيني
وقوفهم على روايات سليمة لأشعاره قبل أن تضطرب طائفة منها أو تضع ، ومن
هؤلاء النقاد ابن قتيبة الذي يمدّه «شاعراً مجيداً» (٣) ، والآمدني الذي شهد أنه
كان «شاعراً بيقيناً للماني» (٤) . وقال ابن كثير كما قال ابن الأثير «له شعر حسن» (٥)
وأورد البندادي مجموعة من شعره ثم أشمها بقوله : «وقد أطلنا في إيراد شعره لكننا
أطبنا» فإن حكمه شعراء الصدور ودرر قلائد النحور» (٦) .

(١) الأغاني «الثمانية» ٣٢٠/١٢ والجن : السرى ، وأحصره المدو : ضيق عليه .
(٢) وطارق رواية ديوانه من ١٤٣ بالأغاني «الثمانية» ٣٢٩/١٢ ، وروايته من ١٥٣ وما
يهدمها بالأغاني أيضاً «الثمانية» ٢٣٠/١٢ (٣) الطارف ٤٣٤ (٤) المؤلف والمختلف ١٥١
(٥) أسد الغابة ٧٠/٣ والبداية والنهاية ٣١٢/٨ (٦) خزنة الأدب ٢٨١/١ .

ج - ابن عتبة :

ولد عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي في المدينة في أواخر خلافة
عمر أو أوائل حكم عثمان (١) ، ونشأ على أبيه عبد الله بن عتبة ، وأبي هريرة ،
والسيدة عائشة ، وابن عباس ، وابن عمر ، والنعمان بن بشير ، وأبي سعيد الخدري (٢)
وزيد بن ثابت (٣) ، ولحق ابن عباس لديه تربة سالحة للفراس فكان يقدمه ويؤثره (٤)
ولم يزل يتعرف من حياض العلم حتى أصبح من كبار فقهاء المدينة ، بل أصبح من
فقهائها السبعة الأئمة ، وصارت وفود الناهلين تلتف من حوله (٥) ، فيأخذ عنه أخوه
عون بن عبد الله والزهرى وضمرة بن سعيد وأبو الزناد وصالح بن كبسان وعمر بن
عبد العزيز وغيرهم (٦) ، وزام يحفظون له فضله عليهم ويقدرونه قدره ، فيقول الزهري :
«سمعت من العلم شيئاً كثيراً ، فظننت أني اكتفيت حتى لقيت عبيد الله بن عتبة فأبدا
كأن» ليس في يدي شيء» (٧) ، وينتسب في موضع آخر بأنه «بجر» (٨) .

ويمكن القول إن عمر بن عبد العزيز كان من أوفى طلابه وأبرمهم ، إذ زار -
بعد توليه المدينة بذكر جميل سنيته إليه وبحرص على زيارته (٩) ، ويبدو أن أبا
عبد الله بن عتبة كان ينظر إلى طاهر المدينة نظرة الولي الذي يفرح لمن نسب في
تنشئته إذا أصاب خيراً ، وبعد ذلك الخير من غار غرسه ، ويستشعر أن له على
طالبه - مهما بلغ - حق السمع والطاعة والحيية والتقدير ، ولذلك كان يحجب والي
المدينة أحياناً فلا يأتون له (١٠) ، ولا يتردد إذا لحظ منه تقصيراً - أي تقصير - في حفظ مكانته
عنده أن يومه بل يحذره وينذره ، حتى لو كان الذي لحظه ظناً محضاً ، وقد احتفت
له المصادر بأربعة نصوص في هذا الشأن .

وهو يكتب له النص الأول بعد أن بلغه عنه شيء بكرهه ، فيتساءل في
كتابه عما يريد عمر : أنيل من مكانته أم عتابه ؟ فإن كان مراده عتاباً ، أهتبه ،

(١) سير أعلام النبلاء جلد ٢/٢٠٠ . (٢) تهذيب التهذيب ٢٤/٧ .
(٣) طبقات الفقهاء ١٥ . (٤) الأغاني «الثمانية» ١٣٦/٩ .
(٥) وفيات ٣٠٠/٢ وتاريخ ابن الردي ١/٨٣ . (٦) سير أعلام النبلاء جلد ٢/٢٠٦ .
(٧) طبقات الفقهاء للشيرازي ٢٩ . (٨) المصدر السابق ٣١ .
(٩) صفوة الصفوة ٥٧/٢ (١٠) صفوة الصفوة ٥٧/٢ ، وحلية الأولياء ١٨٨/٢ .

وإن كان الأمر الآخر فارقه ملياً (١)

وفي الفص الثاني يصاب عمر في بدمنه عند ما زاره هو وهروة بن الزبير، وتغامم عروة والأمير في عباده بن الزبير ومدى حب السيدة عائشة - خالته - له، ومع أن ابن عتبة لم يفهم نفسه في خصامها فإنه لم يسلم من شظايا هذه المركبة الكلامية، إذ طلب الوالي أن يخرجها عنه، ثم لم يلبث أن ندم على ما قرأه في جنب معلمه الخير، فبعث إليه رسولاً يدعو فليثمه عتابه (٢).

أما النص الثالث فيروى أن ابن عتبة استأذن على عمر، فردّه الحاجب دون معرفة من عمر، وأخبره أن عند الأمير عباده بن عمرو بن عثمان، وانها بتدارسان أمراً، فانصرف وهو مهتق متعجب، وقال هذه الايات التي يضع فيها عمر بن عبدالعزيز على مفترق أمرين: أن يختار صحبته واحتذاء خطاه، أو يبتغي مثيلاً له من دونه، ويبين أنه - من جانبه - لا يهيب تلك الصحبة أحداً ما لم يكن مسلماً مفكراً، ويذكره بافتراق الأخلاء إذا اختلفوا (٣).

أين لي فكن مثلي أو ابتغ صاحباً
كذلك إنني تابع صاحباً مثلي
عزيز إخواني لا ينال مودتي
من الناس إلا مسلم كامل المقل
وما يلبث الفتيان أن يتفرقوا

إذا لم يؤتف روحٌ شكل إلى شكل (٤)

ويبدو في الأبيات أيضاً ما كان يحز في نفس عبادة بن جهم فعملة طالبه القديم عمر، فيذكر أنه لولا التقى لمجاء هجاء لاذماً بيد الصدى بجشاه القيام والظاعنون ويصب على الوالي تهاونه في حاجته، واختفائه وراء الابواب:

ولولا اتقائي الله قلت قصيدة
تسير بها الركبان أبردّها يغلي

(١) انظر الأبيات في القيد ٢٣٢/٢.

(٢) انظر هذا الخبر وعتاب عبادة بن جهم في مجالس مطب ١٥/١.

(٣) انظر الخبر والايات في الأغانى (الثقافة) ١٣٩/١.

بها تُنْقَضُ الأحلاس في كل منزل

ويشفي الكرى عنه بها صاحب الرحل

كفاني يسير إذ أراك بحاجتي
كليل اللسان ما تمير وما تحلي

تلاوذاً بالأبواب مني تخافة الـ
حلامة والإخلاف شر من البخل (١)

وقد أخبر والي المدينة بالأبيات فاستقبل تقريبه استقبالاً حسناً، واعتذر إليه وأفسه له أنه لم يكن يدري بعجيبه ولا نبي عنه، فسكت عن مؤدبه الغضب، وعنده (٢).
وأما النص الرابع فقد رواه ابن شهاب الزهري وقال: «جئت عبادة بن عبادة يوماً في منزله فوجدته يتفخ وهو متناظ فقلت له: مالك؟ قال جئت أميركم آنفاً - يعني عمر بن عبدالعزيز - فليثمت عليه وعلى عبادة بن عمرو بن عثمان، فلم رد علي (٣)، ويبدو أنهما كانا يتطارحان قضية، ففردا عنه، فمد ذلك إهانة له، فقص بينهما عن الكثير، وبأمرهما أن يتذكرا التراب، فنه خليفاً وإليه اللداء وأن يتذكرا الآخرة فقها الحساب، وإليها المتقلب، ولا يلبث أن يخطر في ذهنه ما فعلاه، فيأخذ من ذلك غضب شديد، فيعذرها وينذرهما من شر خصوصهما الذين أقل ما يمكنه تجاههم ألا يصدم عن سبيل عداوتهم، ويمود في النهاية يلومها كيف يحملانه - حين استنكفا عن رد سلامه - على ما كان يسأله وهو صبي فأنهى؟ ويستخر بأثمة ذو عزة ومجد وإباء (٤).

غير أن عمر تلقى بيده الوفيّة، وقلبه الخالص، ما أنذره شيخه به، وبقي بقدمه، وبحرس على زيارته ورضاه، حتى إذا قضى عبادة بن جهم واستخلف عمر، جعل يذكر نصيحته التي إسفكر فيها مقالة الأوبين في علي فاستبدل بها قول الله

(١) المصدر السابق ١٤٠/٩ (٢) انظر المصدر السابق ١٤٠/٩

(٣) المصدر السابق ١٤٢/٩ (٤) انظر الايات في الأغانى الثقافة ١٤٠/٩ وما

جدها، والخبر ٢٩٧، وانظر بيتين منها في حاسة البحرى ١٥٠، وقد جمعها الرضى مع أبيات

تألتها في الروي والثانية والوزن في يوم مراك ابن مالك وأبي بكر بن جزم، وصرح باسم

الآخرين، انظر أمالي الرضى ٤٩٩/١.

سبحانه : « إن الله بأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » (١) وأمر بتبريدهما في أنظار الفولة ، وبقيت سيرة ابن عتبة ومجالسه في ذهن الخليفة عمر فكان يقول : « لأن يكون لي مجلس من عبيد الله أحب إلي من الدنيا » (٢) ، ويقول أيضاً : « لو كان عبيد الله ابن عتبة حياً ما صدّرتُ إلا عن رايه ، ولو ددنتُ أن في يوم من عبيد الله خيرٌ مني » (٣) .

ولعل فيما استعرضته من صلة الشاعر بأبي حفص ما يدل على إحساس مرهف رقيق كان فيه ، وهو إحساس لا نفسه في علاقته بسمر من تلامذته غيب ، وإقنا زاه يتردد مع ابن شهاب الزهري الذي كان من أوفى طلابه ، وأكثرهم إعجاباً بمزارعة علمه ، على نحو ما رأينا ، ومع ذلك زى لابن عتبة يبين بهدائه بفصم مودتها (٤) ، كما يتردد مع عراك بن مالك وأبي بكر بن حزم ، وكان الأول تلميذه ، والثاني صاحبه ، وكانوا يعجبالون بالدينة زماناً ثم إن ابن حزم ولي أمرتها وولي عراك القضاء ، وكانا يريان عبيد الله فلا يسلمان عليه ولا يقمان ، وكانت ضريراً فأخبر بذلك (٥) ، فصنق واعتناظ من قساوتها وذكر أنه لولا تقواه وأمله في أن يلينا بعد الحفاء لأمها لوماً أحر من الحجر (٦) .

ويبدو أن هذا الإحساس لم يكن مزاجاً فطرياً صُبغ عبيد الله به ، أو قل هو مزاج فطري لكنه ما كان ليبلغ مدهاء الذي بلته لولا أنه كان يمانى في نفسه أمراً ، وهي مسافة عبر عنها غير مرة فقال :

لا يدُ للمصدر أن ينفتا (٧)

وقال : « إن المصدر إذا نفت برأ » (٨) ، وقال أيضاً : « رأيتهم المصدر

إذا لم ينفت أليس يموت » (٩) ، ونحن إذا هدنا إلى المصادر التي ترجمت له لم نجد فيها

- | | |
|-------------------------------------|---------------------------------|
| ١ (تاريخ الأعيان الإسلامية ١/٥٩٥) | ٢ (نكت الهميان ١٩٧) |
| ٣ (الأغانى « الثقافة » ١٣٧/٩) | ٤ (الأغانى « الثقافة » ١٤٢/٩) |
| ٥ (الأغانى ١٤٠/٩) | ٦ (المصدر السابق ١٤٠/٩) |
| ٧ (وفيات الأعيان ٣-١/٢) | ٨ (الأغانى « الثقافة » ١٤٢/٩) |
| ٩ (طبقات ابن سعد ٢٥٠/٥) | |

تجديداً مفصلاً لكرهه الذي أرمضه ، إلا أننا نجد شيبين قد يمكن أن نستدل بها على ذلك الكرب .

أولها : ما ذكره الرواة من ضعف توأمية (١) ، ثم انطوائها (٢) بأخرة من حياته (٣) ، وهو ما يشير إليه - في أغلب الظن - بقوله :

أبكي على ذلك الزمان ولا أحسب شيئاً قد فات مُرْتَجِماً
إذ نحن في ظل نعمة سَلَقَتْ كانت لها كل نعمة تَبَعاً (٤)

والفقيه الثاني ما رواه أبو الفرج الإصبهاني وأحمد بن محمد المرزوقي من أنه كان له زوجة يقال لها عثمة ، فحبب عليها في بعض الأمر فطلقها ، وله فيها أشعار كثيرة (٥) ، وكل تلك الأشعار يؤكد أنه كان مشغولاً بها شغفاً شديداً ، وأنه قد ندم على هجرانها أحر ندامة ، ولعل تلك الندامة هي التي أمضته وأرهقته ، واحات عيشته مرارة معنوية وهما ثقيلاً . وقد مررت له خلال البحث ثلاث مقطوعات بديمات في عثمة ، الأولى :

تغلغل حب عثمة في فؤادي فباديه مع الخسافي يسير (٦)
والثانية :

غراب وظبي أعضب القرن ناديا بصُرمٍ وصيردانُ المشي تصبغ (٧)
والثالثة :

كتمت الهوى حتى أضرت بك الكتم

ولامك أقوامٌ ولومهم ظنم (٨)

- | | |
|--|-----------------------------------|
| ١ (سير أعلام النبلاء ٢٥٦/٢/٤) | ٢ (صفة الصفوة ٥٧/٢) |
| ٣ (نكت الهميان ١٩٨) | ٤ (الأغانى « الثقافة » ١٤٤/٩) |
| ٥ (انظر الأغانى « الثقافة » ١١٥/٩ ، و ١٤٧) | شرح ديوان الجليلة المرزوقي ١٣٥٤/٣ |
| ٦ (انظر الايات في الأغانى « الثقافة » ١٤٧/٩) | ونكت الهميان ١٩٨ |
| ٧ (انظر الأغانى السابقة ١٤٦/٩) | وصحط الآلى ٧٨١ |
| ٨ (انظر الايات في مجالس تلمب = | |

ومما رواه له أبو الفرج عما يصرح فيه بسم عثمة قوله :

عَفَّتْ أَطْلَالُ عَثْمَةَ بِالْعَمِيمِ فَأَضْحَتْ وَهِيَ مُوحِشَةُ الرُّسُومِ
وقد كنا نخل بها وفيها هضم الكشح جائلة البريم^(١)

لكن أبا عبيد البكري كان يحسب عثمة امرأة ابن عتبة محبوبه له يشيب بها، وأما كانت قد آتت فبويها، فقيل له : لو تزوجتها، فأبى وقال : ابن ضبطي لنفسي وملكي لهواي؟^(٢) وهو سهو واضح ذلك ان أبا الفرج والمرزوقي قد نصا نصاً على انها زوجة، وأيضاً كيف يضبط شيخ ابن شهاب الزهري وعمر بن عبدالعزير نفسه ويملك هواه فلا يتزوجها - لو كانت حبيبة له - زواجاً حلالاً في الوقت الذي لا يضبط نفسه ولا يملك هواه إذا عشقها وتزول بها وشهرها ووقع في الإثم الحرام؟

وقد يضاف إلى هذا ما يثبته قارى غزله من أمر طلاق حقيقي، ثم ندم مبرح في غيبته، وهو ندم يجعله يروح بهم ويمود بهم ويتجمل اللطافة ببنائه، لكن قلبه يدمى من تحنها بجراحه^(٣)، ويتأكر العهد من عثمة فإذا هو يوشك أن يطير لو كان إنساناً يطير^(٤)... ولا يملك أمام ذلك إلا ان يلوم نفسه أشد ملامة لتذوق ألم الهجران الذي كانت تحسبه من قبل رشاداً، وإصابة^(٥).

على ان أبا عبيد البكري يحكي خيراً قريباً مما ذهب إليه فيقول : اختصم رجل وامرأة إلى عبيد الله بن عبد الله ففرق بينهما، وكان ذلك سبيل الحكم، فنظر عبيد الله إلى المرأة فبويها فرحبها حتى انقضت عيبتها، ثم أرسل إليها فهي عثمة التي يشيب بها^(٦).

على أن من يرجع إلى المصادر الأخرى يجد في الاغاني هذه الرواية... عن أبي الزناد عن أبيه قال : قدمت المدينة امرأة من ناحية مكة من هذيل، وكانت

= ٢٣٦/١ والاغاني ثقافة ١٤٥/٩ . (١) الاغاني ثقافة ١٤٧/٩ والجائل : ما يجوز في موضعه ولا يستقر . والبرج : الخلل . (٢) سمط اللؤلؤ ٧٨٢ .
(٣) سمط اللؤلؤ ٧٨٢ . (٤) أمالي المرتضى ٣٩٩/١ (٥) الزهرة ١٨٤ .
(٦) سمط اللؤلؤ ٧٨٢ .

جميلة، فخطبها الناس، وكانت تذهب بقول أكثرهم فقال فيها عبيد الله بن عبد الله بن عتبة :

أحبك حباً لو علت بيمضه لجذت ولم يصمب عليك شديد
وحبك يا أم الصبي مدلسي شهيدي أبو بكر وأي شهيد
ويعلم وجددي القاسم بن محمد وهروة ما أبقى بكم وسعيد
ويعلم ما أخفي سليمان على وخارجة بيدي لنا ويعيد
متى نسألني عما أقول فتشبري فلحجب عندي طارف وتليد

فيلفت آيائه سعيد بن السيب فقال : والله لقد أمرت أن أسألك، ولم ألتها لو استشهدت بنا لم نشهد له بالباطل عندها^(١). وروى الحادثة أيضاً الحصري عن الزبير بن أبي بكر، وأورد أنها أيتيم^(٢)، وهذه المرأة هي ما أرجح أنها التبت بعثمة عند أبي عبيد وأصحاب الخبر الذي رواه فظنوها واحدة، والبون بينها بيد، وليس أدل على ذلك من تكلف الآيات الأخيرة، ووضوح تصنها وهو نصنع أشار إليه سعيد بن السيب في تعليقه عليها، وليس بعيداً أن تكون المرأة التي اختصمت هي وزوجها إلى ابن عتبة ففرق بينهما، لأن ذلك كان سبيل الحكم، كما ذكر البكري، قد أنت المدينة بعد ذلك، وكان ابن عتبة يرغب في الزواج منها، فخطبها في جملة الخطابين، ولم يتم نية، ولم يقل فيها غير هذه الآيات ألبم رغبته في خطبتها. ومهما يكن فإن ابن عتبة مات وفي نفسه حرة من عثمة لا من غيرها، وقد اختلفت الروايات في ميقات وفاته فذكرت سنة أربع وتسعين^(٣)، وخمس وتسعين^(٤) وسبع وتسعين^(٥) وثمان وتسعين^(٦)

(١) الاغاني ١٤٥/٩ ثقافة . (٢) زهر الآداب ١٦٩/١ وانظر الآيات أيضاً في المدينة ١٨/١، وطبقات الفقهاء للشيرواني ٣٠ وأبو بكر بن عبدالرحمن، والقاسم بن محمد، وهروة بن الزبير وسعيد بن السيب وسليمان بن يسار وخرجة بن زيد وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة م فقهاء المدينة السبعة المشهورون . (٣) تهذيب التهذيب ٢١/٧، وتهذيب الأسماء واللغات ٣١٢/١ . (٤) المصدران السابقان ومفاتيحها . (٥) صفة الصفوة ٥٢/٢ . (٦) طبقات الفقهاء للشيرواني ٢٨، ووفيات ٣٠٠/٢، وابن سعد ٢٥٠/٥، وسير أعلام النبلاء مجلد ٤/٢٥٦، وتهذيب الأسماء واللغات ٣١٢/١ وصفة الصفوة ٥٢/٢ .

وثم تسعين (١) واثنين ومائة (٢).

أما وفاته في إحدى السنين الأخيرتين (٩٩ أو ١٠٢) فقد مر بنا ما رواه أبو الفرج من تمني عمر في خلافته لو كان عبيد الله حياً، وأيضاً روى أبو نعيم عن عمر أنه قال: «لو أدركني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة إذ وقعت فيما فيه لمان علي ما أتاني فيه» (٣)، ومعلوم أن عمر قد بويع بالخلافة في صفر سنة تسع وتسعين (٤) أي في هذه السنة، وهو ما يرجح وفاة ابن عتبة قبلها، في الوقت الذي يرد رأياً قاطعاً أن تكون وفاته سنة اثنين ومائة، كما يجعل الباحث مطمئناً إلى أن وفاته كانت سنة ثمان وتسعين وهي السنة التي ذكرتها أكثر الروايات.

وقد تنازرت خلال البحث أبيات كثيرة لابن عتبة وهي تمد في أرقى درجات الشعر الفنية وتتمن يرجع النظر فيها يجد أنها تختص بعدة سمات منها التدفق العاطفي، ويمكن أن اسوق له هذا المثال وهو ما كتبه إلى عمر بن عبد العزيز عند ما بلغه عنه شيء يكرهه:

أبا حفص أتاني عنك قولٌ قطعتُ به وضاقُ به جوابي
أبا حفص فلا أدري أرغمي تريد بما تحاول أم عتابي
فأنت نك عاباً نعتبُ وإلا فما عودي إذا يبراع غاب
وقد فارقتُ أعظم منك رزماً وواريت الأعبة في التراب
وقد عزوا علي وأسلموني مما فليست بدمع ثيابي (٥)

فانظر كيف قطعه النبا وحيره في مراده أهو إهائته أم عتابه؟ وانظر كيف يبدي استمداده للمغو والمندرة، ويفتح لها الأبواب الميراث، ذلك أنها تني أن عمر

- ١ (طبقات الفقهاء للشيرازي ٢٨ وونيات ٣٠٠/٢، وابن سعد ٢٥٠/٥، وتهذيب التهذيب ٣١٢/٧، وسير أعلام النبلاء مجلد ٤/٢٠٦، وتهذيب الاسماء واللقبات ٣١٢/١.
- ٢ (طبقات الفقهاء للشيرازي ٢٨، وتاريخ ابن الوردي ١٨٣/١، وونيات ٣٠٠/٢.
- ٣ (حلية الأولياء ١٨٨/٢.
- ٤ (انظر تاريخ الخلفاء ٢٣١.
- ٥ (القمد القريد ٢٣٢/٢.

لم يحقره ولم يهنه، أما إن كانت الأخرى فإن ابن عتبة لا يستطيع معها صبراً، بل يفارق فيها عمر ومن هو أحب إليه من عمر... وبؤكد قدرته على ذلك بمضاه أهرته وبقائه من بدم حياً.

ومن السمات الفنية في شعر عبيد الله براعة التصوير، ولا بأس أن انتمثل له بقوله:
ولو شئت أدلى فيكما غير واحد عناية أو قال عندي في السر
فإن أنا لم أمر ولم أنه عنكما ضحكك له حتى يلج ويستشيري
وكيف تريدان ابن سبعين حجة على ما أبي وهو ابن عشرين أو عشر
لقد علقت دلو كما دلو ماجد

من القوم لأرخو المراس ولا مزري (٦)

فيومها تدل إلقاء، وهو بضحك لأعدائها حتى يلجوا، وحيلهما دوان يشدان إلى دلو، غير أنها لا يبلبانه، لأنه مشدود إلى جبل قوي أسرماً فيه ما يبيبه، فهو بحسب التنية والحيلة، ويرسم صورة الضاحك والمستشيري. ومن سماته الفنية إحكام القول ورصانة التعبير، اسمه وهو يفخر:

إذا هي حكت وسط عوذ ابن غالب

فذلك ود نازح لا أطالعُه

شددت حيازعي على قلب حازم كتوم لما ضحمت عليه أضالعه
أداجي رجالاً لست مطبوع بعضهم

على سر بعض إن صدري واسمه

بن لي عبد الله في ذروة السلا وعتبة مجداً لا تنال مصانعه (٧)

- ١ (أمالي الرضى ٣٩٩/١، والمهجر ٢٩٨ وحامه البحري ١٥٠، والافاني ١٤٠/٩.
- ٢ (الافاني «الثقافة» ١٤٣/٩، والميزوم: وسط الصدر.

فانظر كيف تنقاد الألفاظ لسياقها فلا تجد فيها نبوءاً ولا تنوءاً، وكيف يؤكد
التزويج بشكرير نعت آخر قريب منه هو « لا أطالعه » وكيف يتقدم متعلق الفعل
« في ذروة الملا » مفعوله « مجدداً » لأهمية التعلق والإيقاعات إليه ، بينما « ينكر ذلك
المفعول لتمعليه ، وكأنما يخاف ان يخفى مبتناه من التنكير فيمنته بجملة صريحة ... »
ومن سماته الفنية الإيقاع الموسيقي الواضح ، ولو تأملنا المقطوعة السابقة
وجدنا فيها للفخر ضجيجاً ظاهراً في الحروف المضممة في نحو « حلت » « ود » ،
« ضمت » ... وفي الحروف الجهرية المنتشرة في الأبيات كاللام والطاء والهمزة
والدال والذال والتين والجيم والضاد ، وفي الكلمات الفخمة مثل شددت ، وأداجي ،
ورجالاً ، وبعض ، ومجدداً ، وفي السياق الصاج المتراص الذي يتضح أكثر ما يتضح
في البيت الثاني ، ولا بأس أن نستمع ايضاً إلى قوله وهو يؤثر ان ينفق ويجياسيداً
على أن يذر المال للوارثين أو المائتين :

سأنفق مالي على لذتي وأوتر نفسي على الوارث
أبادر إهلاك مستهلك مالي أو هببت المائتين^(١)

فالألفاظ تقادير مبادرة الشاعر في الإيقاع ، وتدأرك في إيقاع متلاحق رتيب
مستعينة بتفاعيل البحر المتقارب : « فمول فمولان فمعل » .

« - عروة بن أذينة :

ولد أبو عامر^(٢) عروة بن أذينة بجي^(٣) الليثي المدني^(٤) في أواسط القرن
الأول من الهجرة^(٥) ، ويبدو انه أخذ منذ نعومة أظفاره - إلى حياة النغم
واللهو ، فصحب طيلاب الفناء حتى حذف الموسيقى وصار يؤلف الألحان^(٦) . وأغلب
الظن ان الشاعر كان قد تدفق مبكراً على لسانه ، فجعله مادة ثرية لألحانه ، وذلك

(١) المصدر السابق ١٤٣/٩ (٢) انظر كتيبه في الاغانى (طبع الهيئة المصرية) ٢٢٢/١٨
و ٣٢٧ وتاريخ الاسلام ١٠٩/٥ . (٣) أذينة لقب ابيه بجي . انظر وسط الكلي ١٣٦ .
(٤) التاريخ الكبير للامام البخاري ٣٣/٤ . (٥) لم تحدد المصدر سنة ولادته ، ولكن
يمكن ان يستبطن من خبر قدمه مكة ، لا احترقت سنة اربع وستين ، بصحبه ابيه له ، انه
كان لا يزال يانماً . انظر البحر في الأغاني (الهيئة) ٣٢٣/١٨ (٦) الشعر والشعراء ٥٧٩/٢

ما هيأ لقرينه ان ينظم بالإيقاع الواضح .

وكنا رأينا - عند الحديث عن الغزل - كيف التقى مروءة في هذه الفترة
بسمعي وهام بها ، وقد رجحنا خطبته لها ثم اقتارنه بها ، ولعل من الممكن ان
نحدد مكان اهتمامه المبكرة هذه في أودية المقيت بالمدينة ، وهي أودية ينقى بها
في غير موضع فيقول :

أحبيب بأودية المقيت لحبها والمرصتين وبالشاش مشاشا
لما وقفت بهن بعد تأسس ذرفت دموعك في الرداء رشاشا^(١)

على أن عروة ، منذ اطمأن إلى عشبة بيته ، صار بمكث حكوفاً جاداً على
علوم الدين وينهل من معينها ، وعلى الرغم من أن المصادر قد أغفلت شيوخه الذين
روى عنهم ، تماماً كما أغفلت سائر حياته ، فلم تذكر منهم إلا عبدالله بن عمر^(٢) ،
فإن من الزكوة أنه قد بلغ في الفقه^(٣) والحديث^(٤) شأواً حسناً ، حتى كان ينقى
بجالسه أمثال مالك ابن أنس الأصبحي ، وعبدالله بن عمر المدوني^(٥) ، على نحو
ما كان ينقى تلك المجالس من اهل القريض^(٦) .

ويبدو من لوعة رثائه لجماعة ابن الزبير ، كأخيه مصعب وعامر بن حمزة^(٧) ،
أن هواه كان ، كأغلب اهل الحجاز ، مع ابن ذات النطاقين ، غير أنه لما أحضر
انصرف عنه ، كما انصرف كل رجاله ، وإذا كان لم يوال من بعده بني أمية ، أو لم
يبدع اليهم وبتنصر لفلسفتهم ، فإنه ، في الغالب ، لم يكن يعاليهم عليهم ، بل قد
أثرت عنه أبيات في مدح أبي شاعر مسلمة بن هشام بن عبدالملك يقول فيها :

(١) شعر عروة ١٧٥ ، وانظر ٣٥٧ و ٣٧٩ . (٢) الجرح والتعديل ٣٩٦/٣ .
(٣) المعارف ٤٩٢ ، والشعر والشعراء ٥٨٠/٢ ، والاعاني (الهيئة) ٣٢٢/١٨ وسط
الكلي ١٣٦ . (٤) القدر الفريد ٢٨٥/٥ ، وقوات الرقيات ٧٤/٢ ، وتاريخ الاسلام ١٠٩/٥
وهو يذكر قول أبي داود : لا اعلم له إلا حديثاً واحداً . وهذا يرجح غلبة الفقه على الحديث .
(٥) التاريخ الكبير ٢٣/٤ والجرح والتعديل ٣٩٦/٣ .
(٦) انظر ندوة شعرية في مجلس مروءة حضرها الفرزدق والأحوس : مجالس نعلب ٣٤/٢ :
(٧) كتاب نسب قريش ٢٤١ وشعر عروة ٣٧٠ و ٣٩٤ .

أَتَيْنَا نَمَتْ بِأَرْحَامِنَا وَجِئْنَا بِإِذْنِ أَبِي شَاكِرٍ
فَإِنَّ الَّذِي سَارَ مَعْرُوفَهُ بِسَجْدٍ وَغَارٍ مَعَ الْغَارِ
إِلَى خَيْرِ خَيْدِفٍ فِي مُلْكِهَا لِإِبَادِ مِنَ النَّاسِ أَوْ حَاضِرٍ^(١)

كما أثرت له وفادة على أبي مسلمة هشام بن عبد الملك في الشام، وهي وفادة تذكر فيها الروايات أن الخليفة قال لأبي عامر: ألسنت القائل:

لقد علمتُ وما الإصرافُ من خلقي أن الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسمى له فيمئني تطلبه ولو قدمتُ أناني لا يعنيني؟

فقال: بلى. قال: أراك جئت تضرب من الحجاز إلى الشام في طلب الرزق! فتحرمي عروة غفلة منه، وركب راحلته، وانطلق إلى المدينة، ثم افتقد هشام، ففر خبره، فأبغته جائزته^(٢).

ووفود عروة إلى الشام يعني أنه لم يقض عمره في الحجاز فحسب، وإنما تقلب في البلاد حتى بلغ العاصمة الأموية، وأيضاً فإنه قد أقام في البصرة حيناً من الزمن؛ قال ابن شبرمة: «كان عروة ابن أذينة يخرج في الثلث الأخير من الليل إلى سيكك البصرة فينادي: يا أهل البصرة، (أقامين أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتنا وهم نائمون؟ أو آمين أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلبون!) الصلاة الصلاة»^(٣).

وليس بعيداً أن يكون عروة قد أصاب من وراء كثرة أسفاره وسعة في الرزق وزراء حسناً، وقد يدل على ذلك ما روي من أنه كان له قصر بالمقيق، كما كان له شأن يقوم بشأنها راع يدعى كئيباً: «... عن عروة بن عبيد الله قال: كان عروة بن أذينة نازلاً مع أبي في قصر عروة بالمقيق، وخرج أبي يوماً يثني وأنا معه وابن أذينة، ونظر إلى غنم كانت له في يدي راعٍ يقال له كئيب، وهي

١) شعر عروة ٣٢٨، وكان مسلماً قد ولي إمارة الحج وأحب الناس ومدعوه، وكان هشام يتوه به ويريد أن يوليّه من بعده. ٢) انظر الخبر في الشعر والشعراء ٥٧٩/٢ والمتطرف ٦١/١. ٣) القدر المرید ٢٨٠/٥ والآيات من سورة الأعراف ٩٢ و ٩٨.

مهملة، وكعب قائم حجيرة، فجعل ابن أذينة يتزو حوله وهو بضربه ويقول: لو يعلم الذئب بنوم كعب إذا لأمسى عندنا ذا ذئب أضربه ولا يقول حسبي لا بد عند ضيعة من ضرب^(١) وقد سكت المصادر عن مكان وفاة عروة، غير أنها لم تكن بالإشارة إلى أنها كانت بمحدود المائة والثلاثين للهجرة^(٢)، وأنه كان قد أسن وكثير^(٣).

وقد ترك عروة من بعده ديواناً استطاع الدكتور يحيى الجبوري أن يجمع شتاتة في سبعمائة بيت^(٤)، ويسدور شعره حول النزول والفخر والوصف والرقاء والهجاء والحكمة، ويستحدث الموضوعات الأولان، النزول والفخر، على كثرة إنتاجه، وقد رأينا في «الدراسة الموضوعية» كيف استكثر هذان الجانبان لتحمل عروة ثقلها وحده، ورجحنا أن سمدى، سيدة غزله، إن هي إلا خيطه ثم امرأته، ووجدنا أن من قيمه في الفخر ما هو جاهلي محض، يمتاز بالقبيلة ويصطب للأنساب، وأن منها ما هو إسلامي، ويدخل فيه كثرة افتخاره.

وأم الموضوعات الوصفية في شعره الطلل وحيوان الصحراء، وبدت أن يستفيض عنده وصف الأطلال؛ لوثاقه ارتباطها بالنزل، ميدانه الأول، ومن يقرأ ديوانه لا يكفد يرى قصيدة خالية من الوقوف على الآثار الدارسة لأجبابه، سواء كان وقوفه عرضاً سريعاً، على نحو ما نجد في قصائده الأولى^(٥)، والسادسة^(٦)، والحادية عشرة^(٧)، أم كان مليئاً^(٨) متحرراً في انقراض الظالمين منام الذي كانوا يتزولون فيه، وبأكياً - بعد اعتدائه - من خواطر ذكرياته^(٩)، وتكثر هذه الظاهرة في شعره، ويمكن أن أمثل لها بمطلع قصيدته العاشرة:

١) الاغانى (البهجة المصرية) ٣٢٦/١٨، وحجيرة: تاجية، ويترو: يثب.

٢) قوات الوفيات ٧٤/٢. ٣) انظر تعليق ابن عائشة على آيات سميانه في الاغانى ٣٢٧/١٨، وقد توفي ابن عائشة في أيام الوليد (١٢٥ - ١٢٦ هـ) وعاش عروة بعده خمس سنين. ٤) وحقق شعر عروة أيضاً الأمين محمد الزاكي في رسالته لنيل الماجستير من جامعة القاهرة. ٥) (٦) و (٧) شعر عروة ٢٥ و ١٧٥ و ٢١٢، على التوالي.

٨) شعر عروة ٩٥ و ١١٦ و ١٢٥ و ١٩١ و ٢٥٨. ٩) المصدر السابق ١٢٥.

أهاجتك دارُ الحيِّ وحشاً جنابها

أبتُ لم نكلِّمنا وعيَ جوايها
نعم ذكرتنا ما مضى وبشاشةٍ إذا ذكرتها النفسُ طال اشجابها
وعيشاً بسعدى لأن ثم تقلبتُ به حِقْبَةُ فإلَّ النفوسُ انقلابها
كأنَّ لم يكن ما بيننا كان مرةً ولم نخنَّ في تلك العِراضِ قبيلها^(١)

فهو يقف على أطلال سمدى ، بعد أن افقرت بظلمتها عنها ، ولم يمتدَّ فيها من يجاذبه أطراف الحديث ، ثم يذكر سالف عهدهما ، فتبيح ذكرياته دمه ، ويخطر له ابتهاج حياته أيام سمدى فيمجب لزوال تلك الأيام ، وكأنها ما كانت ، أو كأن هذه الرسوم الوحشة لم تصر بها في خالي الزمن .

وكان هذه الديار المافية كانت قد ألفت السكن منذ سمدى ، فلما رحلت عنها استقبلت أفواجاً من مخلوقات أخرى تبتدئ من حولها حجب الصمت وأماز الفناء ، فندت ماويها والأرآم والشمام والمون وغيرها مما ذكرته قصيدته الخامسة . وهو يصف فيها البقر المين وقد زينت قوائمها جدد بيض ، فقلبتها قطعاً ، وبصور آراماً يزججن نيتاجين في روضة أنف وارقة الظلال ، ثم يتحدث عن نعام رُبْد الألوان ، ويشبهها بالخيام القائمة إذا تيمر فيها الشمام ، ويحكي كيف كانت ظليلاً ونمامات ، زجج ولحانها فنشبه في نفورها السمر في الفلاة قطع السحاب المتساقفة في الفضاء ، وكيف كانت القطيع القليل الريش الحائر المدد يتشقاد لهم ليس خيراً منه حلاً ولا أقرب سداداً :

وترى بها رُبْدَ النعام كأنها

جوف الخيام هوى الشمام خيالها

(١) المصدر السابق ٢٥٨ والجناب : الفناء ، وما قرب من محبة النوم ، ووحشاً جنابها : أي فناءها موحش مفر ، وغال : اغتال .

من كلِّ أزعرٍ يقنقٍ ونمامةٍ تقرو برعلتها الصنار رمالها
مثل الجمامة ، كلما خلفت لها أرج المشية راجعت إجنفالها
زهرٌ مُخرجةُ الزفوف وربها

في الرأي خيفة حليمها وضلالها^(١)

ثم ينتقل إلى وصف عاقرة من حمر الوحش وهي تنتجع الفلاة ، لقد كانت أثنا ضامرة من أثر طرد الفحول لها كي تنأى عن الحمر سوام ، وكانت عودتها ترتم وتلب ، وكان زعيمها الشئون الشديد إذا نقي فرقت خيفاتها ، وتبطلت عنها الثقاف ، وكان إذا أرادها إلى الماء دعاها بقسوة طاغية لا تعرف الشفقة ، وكأنها هو أجبر بورد إبل سيده ، لا يهتمه صحتها ولا راحتها ، ولذلك لم تكن الأثن الحوامل بقادرة أن تستجيب إليه على الوجه الذي يريد ، بل كانت ترتدك من الخوف ، وربما أصابت في ارتباكها وجه الشئون ، أمّا الشططات الأوارت فقد كانت تدعو عدواً ، إذ أنها حديثات سين ، لم يتشمل من وبرها إلا مرة واحدة ، في الشتاء النصرم :

والمونُ تنتجعُ الفلاة فأضمرت منها البطون وأعرضت أكفأها
قُبُّ مَحْمَلِجَةٍ طوى أترابها جري الفحول بها وهذب آلتها
بني الجحاش ، ولا يقارب عودها إلا الشماع ويستحث حبالها
فإذا أرن بها شنون قارح تركت لشيرتها الخفاف نيقالها
وإذا أراد الورد هاج بلفه عنف الأجير على القلاص دناها

(١) شعر عروة ١٥٨ ، والريدة : لون إلى الفبرة ، والتام : ثبت ، والأزعر : القليل الريش ، والقنق : الحقيف ، وهرو : تطلع ، والرعة : النمامة ، والجمامة : العجاجة لأماء نيا ، أو السبي هرافت مامها ، وخلقت : أعقت ، والأرج : نوحج ربح الطيب ، والمشية : آخر النهار ، وراجعت طودت ، والاجفال : هور الظلم ، ومخرجة الزفوف : متغلبة العدو .

يَضْرِبُنْ صَفْحَةً وَجْهَهُ وَجِيْنَهُ فِي الرَّوْعِ ، فَدَوَسَقَتْ لَهُ أَحْمَالَهَا
إِلَّا أُوَارِنَ كُلِّ بَيْكْرٍ عَانِطٍ تَهْدِي لِسْتَنَ الرِّيَاحِ نِسَالَهَا
أَلْقَتْ عَقِيْقَةَ شَتْوَةٍ عَنِ لُونِهَا قَبْلَ المَصِيْفِ فَخَرَقَتْ سِرْبَالَهَا^(١)
ثم يتحدث عن قطعه فلاة مهلكة غبراء على فاقة خفيفة دؤوب قوية^(٢) ،
ولعل وصف الناقة أن يكون أكثر ضرور الحيوان اهتماماً في شعر عروءة ، قال
جانب تصويره لها في قصيدته هذه ، وكذلك في الأبيات التي ذكرتها له في موضوع
الوصف عند الشعراء الفقهاء ، يعود بنيتها في مواضع أخرى ، فيذكر مضيئ^(٣) الطشتن
على كل جمل ضخم ، طويل القترى ، أو فاقة د عيبلقة ، وعراهيمة^(٤) ،
ويحكي اجتيازه الموانع التضريمة على فاقة سريمة خفيفة تطوي السبل ، نشطة لا تبا
إذا لفت العيس ، سارة توج في المفازة ولو في هجير القَيْظِ ، عندما يلتب
الحصى ، وتراقص أشباح الشراب :

قَطَعْتُ بِمَجْدَامِ الرِّوَاكِ شِمْلَةً إِذَا بَاخَ لَوْتُ العَيْسِ نَاجِ هَيْبِهَا
سَفِينَةَ بَرٍّ حِينَ يُسْتَوَقِدُ الحَصَى

وَيَزْدَالُ فِي البَيْدِ الشَّخْوَصَ سَرَابِهَا^(٥)

(١) شعر عروءة ١٦٠ ، والمون جمع عانة وهي القطيع من حر الوحش ، وتتجمع : تحرى
الكلأ ، وأعرضت أكفاليا : جعلها عريضة ، ونب : ضامرة ، وعلمجة : شديدة ، والقرب :
الحاضرة ، والآل : الشمس ، ونبي : بطرد ، والورد : صغار الحجر ، والشياح : اللب ، والشون :
الحمار ليس هنبل ولا سينا ، والقارح : الذي اكملت أسنانه ، والمرة : النشاط ، والورد :
الاستقاء : والف : أي هو وما منه ، والفوس : النانة الفينة ، ووسفت : حلت ، والأوارن :
النشاط ، والمائل : التي لم تحمل سنين ، وسن الرياح : التي تجري على طريقة واحدة ، وسالها :
وبرها ، وكذلك عقيقتها ، وسربالها : فيصها ، يعني جلدها أو وبرها .

(٢) انظر شعر عروءة ١٦٢ .

(٣) المصدر السابق ٢٢١ والقري : الظهر ، وعيلة : سريمة ، وعراهيمة : ضفحة .

(٤) المصدر السابق ٢٧٦ ومجدام الرواح : سريمة الدودة ، وشملة : خفيفة ، وباخ : قر وأبى ،
واللوث : القوة ، والعيس : الأبل البيض ، وهيبها : نشاطها . والشخص : السواد تراه من بعد .

ولمنا لاحظنا انطلاق عروءة في وصف لها والأرآم والزفراف والماناة من
وقوفه على الأطلال ، ومن يرجع إلى ديوانه يجد بنطلق من هذا الوقوف أيضاً
فيصور الرياح التي تنخرق في الديار العافية ، والشحوب التي تنصب عليها مطراً
غزيراً . ولعل خير ما يمثل مشاهد الرياح والأمطار في شعره ما زاء في قصيدته
الخاصة التي أطلال فيها وصف ضرور الحيوانات المتقدمة ، وأيضاً فإنه يقف على
أطلال سمدى الحائلة وقد حملت الريح تتلاعب في أنحائها ، وتطمس معالمها ، وتماكب
عليها من بين صباً ودبور وجنوب وشمال ، ولقد ظل عمنها الذي كان يشبه
حين النوق الوالفة على حيرانها الضائفة يرمي آثارها حتى انتفت رمالها ، وتبهر
حصاها ، وتحات سحرها ، ثم أزر الرياح سحابة عيشي داكنة مثقلة بأبخرة
البحر سمران ما أبرقت وانهمرت فوق الرسوم المشدرة إلى أن صارت صفاً
خالصاً ليس فيه أثر ولا عيش ، فأثمت بذلك عمل الريح العاصفة ، بل قد
جعل من رأى حالتها الأول بمجب وبشكر ما آلت إليه بعد وبئد الطر :

بَلْ هَلْ عَرَفْتِ لَهَا الدِّيارَ بِناعِقِ مَعْفُوءَةٍ لَيْسَ البَيْلِ أَطْلالُهَا
وَتَنابَجَتْ فِيهَا البِوارِحُ كُلُّها راحَتْ تَحْنُ نَمَسَتْ أَذْيالُهَا
تَعْفُو الصَّبَا ذَيْلَ الدُّبُورِ وَتارةً يَدُوهَا لَهَا نَفْسُ الجَنُوبِ شِمالُهَا
يَسْهَكُنْ أَمْثالَ الرِواثِمِ وَلِها فَقَدَتْ ، فَرجَعَتْ الحَينَ ، فَصالُهَا
فِي كُلِّ مَنزَلَةٍ لَعِبَتْ بِدِمنِها وَخَلَصْنَ إِذْخَفَ الدِّفاقُ جُلالُهَا
وَتَخَلَّسَتْ نَحْلَ الطَّحِينِ مُقِيمَةً كُلِّ الرِّيَاحِ تُعيرُها غِربالُها
ثُمَّ اسْتَمَنَ عَلى الدِّيارِ مُخِيلَةً حَلَّتْ عَلى عِصانِها أَقالُها
دِهاً ، وَاهِيَةً الكُلِّيَ بِجِريَةٍ نَحَرَتْ بِها المُسْتَطِراتُ هِلالُها
فَإِذا عَمِرَ لَها حَبِيبِي زَاحِرُ بِالدارِ جادٌ بوبلِهِ فأسالُها